فؤاد التكرلي

حديث الأشجار

قصص وحوارات

اسم المؤلف : فؤاد التكرلي
عنوان الكتاب : حديث الأشجار
الناشر : المدى
الطبعة الأولى : ٢٠٠٧
الحقوق العربية محفوظة

Author : Fuad Tekerly
Title : The Trees Talking
Al- Mada P.C.
First Edition : 2007
Arabic Copyrights © Al- Mada

دار المدى للثقافة والنشر

سورية- دمشق ص. ب.: ٨٢٧٢ او٧٣٦٦ -تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ -٢٣٢٢٢٧٦-فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria
P.O.Box . : 8272 or 7366 .-Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289
www.almadahouse.com E-mail:al-madahouse@net.sy

لبنان -بيروت-الحمراء-شارع ليون -بناية منصور-الطابق الأول - تلفاكس: ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧
E-mail:al-madahouse@idm.net.lb

العراق - بغداد- أبو نواس- محلة ١٠٢- زقاق ١٣-بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون
تلفون: ٧١٧٠٣٩٥-٧١٧٠٥١٣ فاكس: ٧١٧٥٩٤٣
almadapaper.com
almada112@yahoo.com almada119@hotmail.com

All rights reserved. No parts of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system , or transmitted in any form or by any means ; electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission, in writing, of the publisher.

فؤاد التكرلي

<43568747>

حديث الأشجار

الأقاصيص

سر الطفل

كان ضحى يوم عطلة والشمس تملأ سماء بغداد الزرقاء وتنشر أشعتها على أشجار حديقتنا فتعكس تنويعات متدرجة من اللون الأخضر والأصفر والأحمر. كنتُ في الصالة، جالساً أتملى هذا المنظر، حين سمعتُ ابني "سامي" يهتف من الغرفة المجاورة:

- اسمع، بابا؟ هل تسمعني؟ لدي فكرة جميلة. هل تسمعني؟

كنا بمفردنا في الدار، فقد خرجت زوجتي للتسوق منذ بعض الوقت، وكان "سامي" في غرفته المجاورة يتظاهر بالانكباب على دروسه.

أجبته بارتخاء:

- أسمعك. لماذا هذا الإلحاح؟ تعال هنا وتكلم.

ظهر في إطار الباب حالاً، مبتسماً، يحمل كراساً وقلماً:

- فكرة حلوة والله، بابا.

واقترب مني.

كنتُ جالساً على أريكة طويلة، أتمتع بسكون العالم من حولي وبالبهجة التي تمنحني إياها شمس الربيع هذه وأشجار الحديقة وألوانها.

قال سامي:

- أنظر يا أبي، ما رأيك أن نكتب قصة.. أنت وأنا؟ ها؟ فكرة عظيمة. أليس كذلك؟ قل لي.

- لا مانع.

- صحيح؟ قل لي بابا.. صحيح؟

- لا تكن ثقيلاً يا سامي ، قلت لك موافق.

- الله ، الله. اسمع بابا.

ثم اتخذ له مكاناً على جانب الأريكة وفتح الكراس ممسكاً بالقلم ومتهيئاً للكتابة:

- هل أبدأ أنا؟ أم أن لديك فكرة نبدأ بها؟

كان في الثانية عشرة من عمره ، ذكياً وحساساً، وكنت أخشى أن تجلب له هذه الصفات شقاءً من نوع خاص.

- إبدأ أنت ما دمتَ صاحب المبادرة.

- لدي فكرة أظنها عظيمة وجديدة، ولكني لا أعرف كيف أكتبها، قل لي أنت كيف.

لم نكن، أنا وهو وأمه زوجتي، عائلة شقية. كانت سعادتنا من النوع العادي والمألوف في بغداد وفي جونا الاجتماعي المتواضع.

- كيف أشرح لك الطريقة وأنا لا أعرف فكرتك؟ هيا.. قل لي الآن، كيف يمكن ذلك.

- هذا صحيح يا أبي. العفو. فكرتي هي أن أكتب عن زميلي في المدرسة أحمد ، ابن جيراننا هؤلاء.

- أحمد بن أم أحمد؟

توترت أعصابي رغماً عني، حين جاء ذكر أحمد وأم أحمد.

- نعم، بابا. طبعاً، ومن غيره؟

- دعنا نسمع فكرتك العظيمة إذن. هيا.

كانت تسكن الدار الملاصقة لدارنا، أرملة في الخامسة والثلاثين، استشهد زوجها قبل سنتين، وتدعى "بهيجة" وصبيها أحمد هذا زميل ابني في المدرسة.

- فكرتي بسيطة جداً يا أبي، حكاها لي أحمد بنفسه. إنه لا يحب أمه.. يكرهها.

صُدمت، فقاطعته:

- يكرهها؟ يكره أمه؟

- كلا، لا أقصد هذا. أترى.. أنا لا أحسن التعبير. هو لم يعد يحبها، هذا ما قاله لي.

كانت، قبل استشهاد زوجها، تبدو رزينة رزانة مزيفة، فهي تختار ملابسها بشكل خاص بحيث تبالغ في إبراز محاسن جسمها المليء. وحينما كانت العائلتان المتجاورتان تلتقيان في المناسبات، لم يكن يعرف تفسيراً لنظراتها المستطيلة المستلغزة إليه، ولا ما توحيه من أمور غامضة.

- ما هذا الهذر يا سامي؟ لا يحبها ولا يكرهها؟ أية حال غريبة!

- لا تزعل يا أبي. أنا أيضاً لا أدري. أنا أريد أن نتشارك في كتابة القصة. أنت وأنا فقط، هل تريد؟

- أريد طبعاً. لماذا لا أريد؟ ولكن، علينا أن نكتب أموراً يفهمها القراء.

- القراء؟! هل سيقرأ لنا أحد ما نكتب؟

- لِمَ لا؟ لماذا نتعب ونكتب قصة إذا لم يقرأها أحد؟

- صحيح، صحيح والله، بابا.

واستشهد زوجها، وقام هو بكل الواجبات التي تفرضها الجيرة عليه بتشجيع من زوجته؛ إلا أنه لم يكن مرتاحاً في صميم قلبه. تبدلت مواقفها ونظراتها إليه مع مرور الأيام. صارت تحدثه، حين ينفردا، بلغة لا تقبل التأويل وبلهجة فيها الكثير من الغنج. لم تكن جميلة بالمعنى المألوف، لكن جسدها، بدا له على الدوام، مخلوقاً لأمور يعرفها الرجال.

- لنقل إذن.. كان أحمد في وضع لا يحمل الود فيه لأمه.

- جيد. جيد جداً. ألم أقل لك يا أبي بأننا، أنا وأنت، نستطيع أن نكتب أجمل قصة؟

- لا تتعجل. ماذا حدث بعد ذلك؟ نريد حدثاً.

- حاضر. الآن، عندنا أحمد كما قلتَ في وضع.. كيف قلتَ؟ لا يحمل التودد..

- الود.. لا يحمل الود لأمه.

- بالضبط.. لا يحمل الود لأمه. هكذا الكتابة المضبوطة. صار لا يطيعها ولا يهتم بها أبداً. لا يأكل ولا يشرب ولا ينظف أسنانه. خاصة إذا كانت تراقبه. جيد؟

- جيد. استمر.

- سأستمر. هل تعلم يا أبي أنه مثل طفل صغير..

- ماذا؟ هو طفل صغير بالطبع.. ماذا تقصد؟

- أعني.. لا أدري. جاءني قبل أيام، تصور، يقول لي وهو يوشك على البكاء.. "أريد بابا، سامي.. أريد بابا" كأني أستطيع أن أردَّ له أباه!

وأخذ يعاونها في شؤون البيت أحياناً. أتعبته هذه المساعدات

المجانية. تختار الوقت الذي يعود فيه من الدائرة ليرتاح، فترفع رأسها فوق الجدار الفاصل بين داريهما وتنادي أم سامي. وكانت، على الدوام، متزينة شبه متبرجة؛ لا تراعي واجب الحشمة حين يحمل نفسه ليلبي طلبها بتوظيب قنينة الغاز؛ فلاتني تحتك به بحجة المساعدة، وهي تتضاحك باستمرار.

- يبدو لي يا سامي أن صاحبك أحمد هذا طفل مريض نفسياً.

- هذا جيد يا أبي، ستكون قصتنا نفسية جداً. موافق؟

- نعم. هل كتبتَ كل هذا ؟

- كلا. أنا مشغول بكتابة الملاحظات الأساسية.

- ومتى سنكتب القصة إن شاء الله؟

- قل لي أنت متى يا أبي وسنبدأ حالاً.

- حين تفرغ من دروسك طبعاً.

- طبعاً. هذا أمر محسوم.

- أكمل إذن.

وتراها ترحب به باشتياق وهو يدخل الدار مبسملاً ومتظاهراً باحترامها، وتبقى ملتصقة به أو تكاد، وشذا عطرها يملأ منخريه وهو يقوم بعمله الشاق ذلك. ثم إنها، بين الحين والآخر، تذهب وتجيء، سائرة بحركات مثيرة تربكه وتتعبه كثيراً.

- عندي فكرة، بابا. جاءتني الآن. نركز على حالة أحمد النفسية طويلاً.. نكتب عشر صفحات، ما قولك؟

- تريد أن تقتل القارئ؟!

- ها! أنقدر حقاً؟ بعشر صفحات فقط؟!

- بأقل من ذلك أحياناً.

- آه.. أنت تمزح معي يا أبي.

- لنهتم بقصتك إذن.. قصة أحمد. ماذا جرى له أيضاً؟ حدثني.

- جرى له أنه بقي لا يحب أمه ويعاكسها ويرفض كل ما تطلب منه. صار لا أدري كيف أصفه.. ساعدني يا أبي.

- قل لي ماذا حدث له أولاً؟

- لا أدري بالتحديد.

- كيف ستكمل قصتك؟

- ساعدني يا أبي. قلتُ لك ساعدني منذ البداية. وأنا لا أقدر على إنهائها بمفردي.

- حسناً.. حسناً؛ لنقل أنه صار مجنوناً.

- لا، بابا، لا؛ أرجوك. لم يصر مجنوناً؛ صار مختلفاً فحسب.

- كلنا مختلف عن بعضنا، ما الفرق؟

- نعم، صحيح؛ ولكننا لسنا مجانين. مع ذلك، أتذكر، قال لي مرةً..

- الآن.. لم تقل إنه حدثك عن أمر جديد.

- بل حدثني؛ أتذكر أنه قال لي إنه رأى شيئاً.

كانت أمسية عجيبة. لم يكن في الدار أحد غيري حين أطلت برأسها من وراء الجدار فأخذت ترسل نداءاتها المتتالية. كان سامي وأمه قد خرجا لقضاء شأن ما لا أتذكره، وكانت أشعة الشمس الحمراء تنير وجهها الملون وتزيد من التماعات عينيها. سألتها عما تريد، فتضاحكت بخفة ولم تجب. اقتربتُ من الجدار بحذر. سألتني عن أم سامي

فأخبرتها، فرجتني، شبه متوسلة، أن أساعدها على تشغيل ماكنة الغسيل التي توقفت فجأة، ثم أضافت أن ابنها أحمد مريض منذ يوم أمس وتخشى أن تزعجه إن هي أساءت تشغيل الماكنة.

- ما هذا الشيء الذي رآه؟

- لم يقل لي. هذه ورطة فنية، أليس كذلك يا أبي؟

- طبعاً. يجب أن نخترع حادثة وملأ الفراغ.

لم يدر بخلدي أمر سيء تجاهها حين رأيتها واقفة تنتظرني وسط شرفة دارها الأمامية. كانت متزينة كعادتها، ترتدي فستاناً ضيقاً يهصر جسدها ويبرز نهديها بشكل مبالغ فيه.

لم يكن في الأمر جديد. كنتُ أراها هكذا أغلب الأحيان، إلا أني، هذه المرة، وقعتُ فريسة رغبة عنيفة وشبه جنونية لتملكها. سيطرت عليَّ، فجأة، فكرة واحدة هي أنها تريد مني أن أفعل شيئاً وأن عليَّ أن أفعله؛ وكنت أحس بحرارة تتملكني وتدفعني نحوها.

- وكيف نعمل ذلك؟

- نتخيل. دعنا نتخيل ما رأى أحمد السخيف هذا.

- لماذا سخيف يا أبي؟

- لا أدري. ربما، لأنه لم يقل لك شيئاً عما رأى.

- صحيح. إنه لم يقل لي.

وقادته إلى غرفة أخرى حيث لا توجد ماكنة الغسيل، ولم يسألها عن السبب. كانا متفقين ضمنياً، يجمعهما خبال من نوع خاص. لم يفكر هل يصح هذا الأمر الذي ينويان الإقدام عليه، أم لا يصح، وكان منساقاً

معها. أذهلته جرأتها واندفاعها الوحشي، وأحس بنفسه كأن أفعى ضخمة تبتلعه بشراهة.

كانا يلهثان وهو يحس بلعابهما المختلط يسيل من طرف فمه الملتصق بشفتيها، حين رآه. بدا له وجه الطفل أصفر خلال فتحة الباب الموارب؛ وكانت عيناه مرعوبتين مدهوشتين.

- ألم تلح عليه بالسؤال يا سامي؟

- كلا. لماذا ألح عليه يا أبي؟ هو لا يريد أن يتكلم، فلنتخيل إذن ما كان رآه،

- كما قلتَ.

- هيا نحفز خيالنا يا أبي، لعلنا نصل إلى معرفة ما رآه.

- لا أظننا نستطيع ذلك.

- آه.. الآن، يا أبي. لا تحكِ هكذا. لماذا تقول لا نستطيع والقصة أوشكت أن تنتهي؟

- لأن الخيال يا بني، يعجز أحياناً عن الإمساك بواقع الحياة العجيب هذا.

دمشق - شباط ٢٠٠٤

الأغنية الأخرى

خرجت، متزينة، من غرفتها، فرأت أمها تقبل نحوها. واجهتها واحتضنتها ثم قبلتها. كان في عينيها المبللتين والمحاطتين بالغضون انطباع مبهم بالرضا والعرفان بالجميل. كانت أختها بجوار أمها فسألت: هل سنجلس في الصالون؟

أجابت الأم بالإيجاب وبأن الصالون قد نُظف وأعد لاستقبال الجماعة.

منذ عودتها إلى تونس من الخارج لم تجد أمها بهذه الحالة النفسية من الاطمئنان رغم انشغالها المستمر. كانت العائلة مهمومة على الدوام بفراقها وبعودتها وبعدم اكتراثها بالاستقرار، وهو ما كان يعني عندهم الزواج. لم يعرفوا بالضبط ما جرى لها في الخارج، وحين رجعت رجوعاً مفاجئاً غامضاً، ازداد قلقهم، خاصة وأن صحتها لم تكن جيدة أول الأمر، إلا أنها استعادتها منذ بعض الوقت.

ومنذ الأيام الأولى التي أعقبت إيابها، بدأت الأم بالحديث عن الشاب الذي بقي ينتظرها سنين طويلة، ذلك الشاب الغني الذي يشغل مركزاً مرموقاً في شركة كبيرة مقرها في سويسرا، والذي لا يزال يتمنى الزواج منها. كان حديثاً عابراً في الأيام الأولى، ثم صار طويلاً ثقيلاً

بمرور الأيام وتحول إلى إلحاح من والدتها وأختيها ينطوي في ثناياه، هذه المرة، على معنى خفي من معاني التهديد: "إنك لن تستطيعي أن تقاومي هكذا إلى الأبد. لا مجال لتضييع الوقت بعد الآن والعمر ينقضي..".

.. صارت تأخذها نوبات مستديمة من التفكير والتأمل، تسترجع فيها سنواتها القليلة الماضية في الخارج وعلاقاتها وخيباتها. وبسبب ما خلفتها تلك الأوقات في نفسها من كدمات، أخذت تميل إلى الإذعان لافتقادها الحل الآخر.

أرادت أن تعيش فقط، مثل الآخرين، دون عواطف ملتهبة، دون أحزان عظمى، دون فشل جديد.

ومن يدري، فقد تكون هذه هي السعادة الإنسانية التي بحوزتها.. بحوزة كل إنسان.

استمهلت أهلها أسبوعاً ثم أسبوعاً لتعيد التفكير في عرض الزواج ذاك، وانجرت الأسابيع إلى أشهر، ولم تدر بالضبط، ورسائله منقطعة، أوافقت أن تتعرف على ذلك الشاب المرموق يأساً أم اقتناعاً؟ وكان الموعد في هذا المساء، الذي بدا لها مظلماً لغير سبب مفهوم. وواساها، قبل كل شيء، هذا الحبور الذي سيطر على أمها وأختيها. لعلها تحسن صنعاً..أحسنت صنعاً بترك تلك الخيالات وراءها، ولعلها كانت زائدة في حياته، من يدري، حتى هو قد يخطئ.

كان الصالون واسعاً، تنتشر فيه شمس الغروب عبر الشبابيك الطويلة المفتوحة، وضجة الشارع تعلو أحياناً وتنخفض. رمت بنظرها على أثاث الغرفة القديم الذي جددوه قبل فترة قصيرة. شعرت بألفة

غريبة نحوه..هل ستفارق هذه الأجواء مرة أخرى؟ اقتربت من الشباك وأطلت منه. كان الضجيج يختلط بالأغاني المنبعثة من المقهى الذي افتتح حديثاً في مدخل عمارتهم. كان الشاب المرموق قد عاد منذ حين من مقر عمله في "جنيف" واتصلت عائلته بعائلتها عدة مرات. كانوا يقصدون أن يقدم لها نفسه وأن يتعرف عليها عن كثب. كان من مدينتها نفسها، وعائلته تعرف عائلتها، وكان كل شيء بينهما يبدو من منطق الجميع، متصلاً. كانت إذن راضية بشكل من الأشكال أو لنقل خالية النفس من تلك الأوجاع الخفية التي تصيب قسماً من الذات لا تستطيع تحديد موقعه.

سألت أختها عن الوقت في اللحظة نفسها التي قرع فيها جرس الباب.

كان مع والدته، شاباً عصرياً، صحيح الجسم والملبس. ومع انتهاء فترة التعارف بينهما والتصافح وارتباك الجميع في اختيار محل للجلوس، وجدت نفسها وظهرها إلى الشباك المفتوح ووجدته جالساً بجوارها على كرسي وثير آخر.

لم يرحها هذا الخجل الذي تملكها ولا هذه الحركات الخرقاء منها، إلا أنها استطاعت بعد دقائق أن تتماسك وتسيطر على نفسها.

لم يكن سيئ الطلعة ولا كانت النكتة تعوزه أو العبارات الرقيقة، وكان يتكلم الفرنسية بطلاقة، جالساً بارتياح جانبها، يوجه إليها نظرات إعجاب من عينيه السوداوين الصغيرتين.

لاحظت أن الجميع ابتعدوا عنهما بشكل من الأشكال، بحيث بدا لها كأنهما كانا منفردين في الصالون. سألها عن كتاباتها الأخيرة

وأضاف أنه يتابع ما تنشره بشغف. أطربها ذلك وأسعدها. أجابته بغموض. كان ذلك ظرفاً جميلاً منه، رغم أنها لم تصدقه تماماً، ولقد أذاب من البرودة التي كانت تشوب لقاءهما. ومضى الوقت دون أن تشعر به، ولكنها تتذكر جيداً أن الأغنية ارتفعت على حين غرة عندما دخلت أختها إلى الصالون حاملة صينية الشاي والكعك. "سكت والدمع تكلم على هواه" انبعثت من المقهى في أسفل العمارة، بصوت صافٍ وعال أكثر من المعتاد.

توفزت أعصابها في الحال. هذه الأغنية..هذه الأغنية بذاتها..يا لله!.."والقلب ياما بيتألم" لم ترد أن تسمعها، ففيها الكثير من الحسرات والأنين. قالت له ذلك في وقته، حين صادف أن سمعاها مرة أو مرتين وهما معاً. اقتربت منها أختها مبتسمة ابتسامة ذات معنى وقدمت لها قدح الشاي. نظرت إليها متضرعة، تشكو الصوت العذب الرخيم الذي يتعابث بخشونة مع قلبها. "تنزل دموعي على خدودي" لكن الأخت المشغولة بخدمتها لم تلتفت إلى النظرة المتضرعة. عبثاً غلق الشبابيك، فقد فات الأوان على هذا العمل.

كان هو مستمراً في حديثه، يتكلم مع ابتسامة لطيفة متسائلة. لم ترد عليه ولم تستطع أن تبدي اهتماماً، فقد كانت في عالم ثان. كانت، في ثنايا تلك النغمات المتلاينة الشاكية، تشعر بنفسها تؤخذ عنه بعيداً..بعيداً. لم يُترك لها الوقت كي تملك نفسها. "وأقول لها دموعي شهودي..ما تصدق" وتتذكر أنه عاد إلى هذه الأغنية حين تأزمت ظروفهما وعلاقتهما. صار يستمع إليها ويعيد الاستماع، ويعيد. أحست أنه يريد أن يبكي حالهما مع الألحان. لم يجرؤ أن يبكي كما

يبكي البشر، وأراد أن ينغم بكاءه، ورضيت هي بذلك وفتحت نفسها لتلك الأشجان بدون شروط. صارا يدمنان الاستماع، هما الاثنين. لعلهما كانا يبكيان، خفية، هذه العاطفة التي تربطهما منذ حين وتجمع بينهما بشدة. كانا، تتذكر، محاطين بخشية لا حدود لها. كانا خائفين، أكانا خائفين حقاً؟ وممَ؟ ولماذا؟

سألتها أختها، بغتة، عما بها. كانت واقفة بحرج فوق رأسها، ترسم ابتسامة مفتعله وهي تتظاهر بأخذ قدح الشاي من جانبها. وجدت نفسها مطرقة بنظرها إلى الأرض، غير مستمعة إلى الأحاديث المتبادلة حولها. أشارت لها أختها بطرف عينها أن تنتبه إليه..جالساً بغير ارتياح، يمسك بقدح الشاي وقطعة كعك وهو ماض في حديثه معها..هي المطرقة برأسها نحو الأرض. أجابت أختها بهزة خفيفة من رأسها، لكنها لم تستطع أن تعود بالكامل إلى حالها السابقة. تطلعت إليه.. كم يختلف عنه! كم يختلف عن كل البشر!

أيكون هو الوحيد على هذه الشاكلة؟ أكان هو إذن، الوحيد الذي ملك أن يعطيها نفسه حقاً وأن يجعلها تشعر بأنه يفعل ذلك بكل ما في الدنيا من إخلاص؟

سمعته يسألها بصوت خافت عما إذا كانت تحب سويسرا والجبال والثلوج؟ كانت تعشق البحر فقط، وأجابته بالإيجاب. سُرَّ لقولها وملأت الابتسامة وجهه المحمر قليلاً. كان هو يبتسم بعينيه أولاً ثم يضيء وجهه بعد ذلك. "دايماً تكذبني بحبي وتقول خداع" ويرفع أصابعاً أمام وجهها محذراً مداعباً. كان يخفي لوعة في أعماقه ويحاول أن يخفيها عنها. يشدها إلى قلبه الخافق الذي كان ينشج دون سبب. أهو الغناء حسب، أم هي خفايا في حياته لا يمكنه أن يبوح بها؟

"ردي عليَّ الدموع، ردي علي دموعي" أم أنه كان يتهجس ويخشى الفراق؛ أم أنه أخيراً ذلك الخوف المبهم اللامعقول الذي يهبط على الإنسان أحياناً من لا مكان؟ "تعالي نشرح هوانا" وكررها هامساً "تعالي نفرح هوانا..تعالي نهوى فرحنا".

عادت إلى واقعها حين سمعت أحدهم يقح. كان يضع قدح الشاي على الطاولة وينظر ناحية والدته بحرج. أحست بأنها انصرفت عنه أكثر مما يجب، فانبرت تسأله عن أمر ما لا تدري ما هو..عن البحر، ربما، أو عن السماء التي تشابه البحر. لم يفهمها بالضبط واستوضح منها عما تعني.

كانت "تعالي نفرح هوانا" تجذبها من أقصى الدنيا إليه..إلى ذاك البعيد الذي كانت على يقين بأنه يحتاج إليها حاجته إلى الشمس والهواء.

سألتها والدته عما إذا كانت ستزورهم عن قريب؟ رفعت نظرها إليها. كانت سمات قلق غريبة مطبوعة على وجوه الجميع وهم يتطلعون إليها. لبثت صامته، لا تدري كيف تجيب. كرر هو السؤال عليها، مبتسماً بلطف ولكن ببعض الضيق.

كانت والدتها ترمقها، في جلستها على الطرف الآخر، بنظرات تختلط فيها الحيرة والتوجس.

"وأوصف لك اللي ضناني". كان أمامها في ذلك الغسق البنفسجي المسحور، على طرف الغابة، والسماء غامقة الزرقة، تلتمع عليها، فوقهما، غيمة حمراء تعكس أشعة الغروب. كانت عيناه مغرورقتين تشعان حباً وقلقاً مبهماً، وهمس، كم تتذكر: "أنت حلم حياتي.

أنت حبي. كوني صبورة معي. كوني معي. أرجوك، ابقي معي".

كانوا يلغطون فيما بينهم، ووصلت إلى سمعها ضحكة قصيرة مفتعلة. رفعت بصرها. لم تكن ترى بوضوح خلال عينيها اللتين غشتهما الدموع "وترحميني من الزمان" أهذا هو سره؟ أن يكون أضعف منها وأن يكون قوياً بها، قوياً بحبها وبحبه، قوياً بالحب الذي يجمعهما ويسندهما؟ وهو، بدونها إذن، لن يجد الرغبة في مقاومة الحياة، وستقضي عليه الحياة لاشك حين يفقدها، حين يفقدها هي "وترحميني من الزمان". الآن، بمقدورها أن تسمعه جيداً، ولن تسمح بأن تضيع هذه النغمة الأليفة..نغمته..بين لغط هذا العالم المجنون.

قامت من مكانها. لبثت واقفة بتردد تتطلع إلى الوجوه المندهشة حولها. لم ترد أن تؤلم احداً مرة أخرى ولكن.

هتفت بصوت مرتجف وهي تنقل بصرها بين أمها وأمه وأختها وذلك الجالس المستريح:

- سامحوني. هناك من ينتظرني. إنه بحاجة إليَّ. أرجوكم، سامحوني.

وأسرعت راكضة، تخفي عينيها بيدها لحظة، ثم تمضي.

تونس - ٢٠٠٢

قضية خاصة
(فانتازي)

بعد ظهر ذلك اليوم الشتوي المشمس من أيام بغداد، وقف صبري أمام غرفة والدته مرتدياً ثياب الخروج. تطلعتْ إليه بدهشة كبيرة:

- ستخرج؟!

- نعم. بودي أن أشتري حاجة أو حاجتين.

كان بالغ الطول، ضخماً، مُنحني الظهر قليلاً، وكانت والدته منحشرة في زاوية من غرفتها أمام منقلة لا تزال تلتمع فيها بعض الجمرات:

- ما هذه الحاجة يا ابني؟ الدنيا باردة في الخارج هذه الساعة.

- أريد أن أشتري رزمة من الورق ومسطرة.

- طلبوها منك في الدائرة؟

- كلا. إنها مسألة خاصة.

- مسألة خاصة!؟ الله يرضى عنك يا صبري.

- لن أتأخر.

ثم استدار وانصرف. هتفت والدته:

- أغلق الباب جيداً.

كانا يسكنان على جهة من محلة "فضوة عرب"، إحدى أحياء "باب الشيخ"، في دار صغيرة لا يعلمان بالضبط من أورثها لهما. دار مختبئة في زقاق ضيق ينحني عدة انحناءات قبل أن يصب في شارع "الكفاح". وبسبب تسوية أرض ذلك الزقاق عدة مرات، فقد انخفضت باب الدار تحت مستوى الشارع نصف متر تقريباً. كانت تحتوي على غرفتين حسب، السفلى التي تسكنها الأم، كبيرة وذات جبهة واسعة من الشبابيك تطل على الحوش. أما غرفة صبري فتقع، لضيق المكان، فوق غرفة والدته، ويُرتقى إليها عادة بسلم مهدم الدرجات.

كان صبري في السابعة والأربعين من عمره حين حدثت ثورة " ١٤ تموز ١٩٥٨ " العراقية، وكان موظفاً صغيراً في دائرة الطابو، يعمل في غرفة واسعة تضم ستة موظفين آخرين، على تسجيل الأوراق والمراسلات الصادرة والواردة إلى الدائرة.

لم يكن غبياً ولا ذكياً. لم يكن مهتماً بشيء ولا غير مبالٍ. لم يكن متفتحاً ولا منغلقاً. لم يكن شخصاً ولم يكن خشبة. لم يكن محترماً تماماً. لم يكن شجاعاً ولا جباناً. أنهى من دراسته المرحلة المتوسطة بمشقة، ووجد بمشقة أكبر، هذه الوظيفة التي يعتاش منها. ولأن عمره كان في سنة ١٩٥٨، سبعة وأربعين عاماً، فقد صار في سنتنا هذه ١٩٥٩، ثمانية وأربعين عاماً، وزاد وزنه خمسة كيلوات كما ازداد إنحناء ظهره.

خرج صبري إذن، ما بعد ذلك الظهر الشتوي،من داره سائراً على مهلٍ كعادته دائماً، لا يلتفت بفضول لأحد ويرد باقتضاب على تحية بعض المارين. هبط الزقاقُ به نحو شارع "الكفاح"، فاجتازه محاذراً

واستدار يميناً حتى وصل مكتبة لبيع القرطاسية مجاورة لدكان الحلاق "خليل". طلب من البائع سبعين ورقة بيضاء غير مخططة ومسطرة بطول ثلاثين سم. دفع الثمن وحمل اللفافة عائداً بخطواته البطيئة إلى البيت.

سمع حالما أغلق باب الدار خلفه، أصوات نساء يتحدثن في غرفة والدته، فحثَّ الخطى نحو السلم. نادته والدته من وراء شبابيك غرفتها:

- يا صبري. أنت يا ابني. تعال لحظة هنا.

تردد برهة أمام مدخل السلم. كان متضايقاً، يشعر بظلمة في قلبه، فقد كان يعلم بحدسه أن تلك المعلمة "رسمية" تجالس والدته. لم يكن يهمه أن يراها أو يستمع لحديثها، ولم يكن يهمه ألا يراها وألا يسمع عنها أي خبر. فتح، مع ذلك، باب غرفة والدته بحذر وأطل برأسه. كانتا تفترشان الأرض، جالستين على فراش ممدد أمام المنقلة، تشربان أقداح الشاي وعلى وجهيهما، هما الاثنتين، مسحة من الفضول والسرور الغبي. حيا دون أن يدخل. أخبر والدته أنه سيعود إليها حالاً.

ألحّت عليه:

- تعال يا ابني: لا غريبة معي. قل لنا ما اشتريت. لا غريب هنا. تعال أدخل.

- حالاً يا أمي. سأعود حالاً.

ثم بدأ يصعد سلمه المتهدم الدرجات بجهد كبير. ألمتّ به ظلمة قلبه مرة أخرى وهو يدخل غرفته الصغيرة. وضع حزمة الورق والمسطرة على مكتب قرب سريره، ثم جلس على الكرسي بحذاء المكتب. كانت الغرفة ذات شبابيك خشبية تطل على حوش الدار الضيق، ولا تحتوي إلا على سرير ومكتب وكرسي. كانت الجدران عارية، تبقّعها الرطوبة المتزايدة

بأشكال عبثية؛ وعلى الأرضية فُرشت زولية فارسية قديمة ذات ألوان قاتمة.

لم يفكر بأي شيء، ولم يخطر له أن يستجيب لنداء أمه، ولا خطر له ألا يستجيب. كان جالساً بمفرده فحسب. سمع، بعد دقائق، صوت والدته تعاود طلبها منه أن يأتي لشرب الشاي. قام في الحال وأخذ ينزل الدرجات دون صوت. وكان قرب باب غرفة والدته الموارب، حين طرق سمعه حديثها مع الزائرة:

-... ولا أدري بأي قسم أحلف لك يا عيني يا رسمية، أكلتُ رأسه بحديث الزواج منذ سنوات. منذ سنوات والله؛ ولكنه، يحفظه الله، كان في كل مرة أصم وأبكم. صمٌ بكمٌ. هكذا والله العظيم.

بعد انصراف الزائرة صعد إلى غرفته وأشعل المدفأة النفطية ثم أرتدى ملابس البيت.خرجت والدته قاصدة المطبخ الذي يقع أمام غرفتها عَبر الحوش، لتعد العشاء.

كانت حياتهما تتهادى بسيرها البطيء على هذا النمط. يستيقظان مبكراً ويفطران بصمت، ثم يمضي صبري، بعد ذلك إلى الدائرة التي يبدأ الدوام فيها منذ الساعة الثامنة صباحاً وينتهي في الثانية بعد الظهر. كانت والدته تصّر، دائماً، على تحضير لقمة صغيرة ترجوه أن يأخذها معه ليعالج الجوع الذي قد يداهمه؛ وغالباً ما كان يرفض. إنه لا يدري متى يشعر بالجوع ومتى يشعر أنه شبعان. الأمر، بشكل من الأشكال، سواء عنده. وكانت الوالدة العطوف تستغرب هذا الكلام منه ولا تفهم معناه:

- كان والدك في حياته كالأسد الجائع. جائع كل الوقت، سبحان

الله. لم تأتِ أنتَ على شاكلته! كان قصيراً بطيناً مثل برميل، يرحمه الله.

توفي والده وهو في العاشرة من عمره. لا يزال يتذكر تلك الليلة الرمضانية، حين دفع الجشع أباه الى ازدراد كيلو من البقلاوة، فارتفع لديه الضغط الدموي ومرض السكري وقتلاه بسهولة. تعشيا بصمت كما هي عادتهما. كانا يتناولان الطعام في غرفة الوالدة، جالسين على فراش موضوع على الأرض وأمامها الصينية الكبيرة وعليها ما تعدّه أمه من شهي المأكولات والأطعمة. لم يقل لها إن سمنته المتزايدة متأتية، ربما، من هذا الأكل اللذيذ، إذ لم يكن يعلم شيئاً عن ذلك الأمر.

خرج يغسل يديه، تاركاً والدته تدبر أمر الصحون الفارغة ثم تصلي وتنام. قصد غرفته وجلس الى مكتبه، استخرج قلماً من جيب سترته المعلقة وتناول المسطرة ثم فتح رزمة الورق.

بعد أن يستيقظ صبري وينهض من الفراش، فيحلق ويغتسل ثم يفطر ويرتدي ملابسه ويخرج قاصداً مقر عمله، تتحامل والدته على نفسها وعلى ساقيها المتراختين، فتصعد السلم وتدخل غرفته لتنظفيها وترتيب سريره. كانت، هذا الصباح، خالية الذهن وهي تمارس عادتها تلك. تبدأ بأرضية الغرفة فتكنسها بخفة دون أن تثير الغبار، وتهجم بعد ذلك على الفراش فترفع اللحاف وتنفضه بشدة وتتناول المخدة فتضرب عليها عدة مرات. ثم تعيد ترتيب السرير حسب الأصول التي تتقنها جيداً. تلتفت بعدئذ الى المكتب. رأت عليه أول مارأت تلك الرزمة من الورق والمسطرة ذات الثلاثين سم، فتذكرت بأن هذه هي الحاجة البسيطة التي خرج صبري لشرائها أمس بعد الظهر. وقفت أمام المكتب،

ممسكة بقطعة قماش، تنوي مسحه من الغبار المتراكم عليه. كانت رزمة الورق والمسطرة موضوعتين جنباً الى جنب على المكتب. وجدت الورقة الفوقانية مليئة من الأعلى الى الأسفل بخطوط ذات نسق خاص. فحصت الورقة الثانية فاكتشفت أنها تشبه الأول؛ وهكذا كانت بقية الأوراق السبعين.

ماذا يفعل هذا الطفل الكبير المنعزل، في ليله الطويل؟

رتبت كل شيء كما كان بعد أن مسحت المكتب بعناية وعادت تهبط درجات السلم منشغلة الذهن بفكرة واحدة هي أن عدم الزواج يؤدي بالرجل إلى مواقف غريبة قد لا تحمد عقباها.

نسيت الوالدة أن تسأل أبنها عن معنى ما عمله في الليلة السابقة؛ وتقضى الوقت بينهما في تبادل حديث قصير وطعام.

صعد صبري إلى غرفته ولم يخرج منها ألا في صباح اليوم التالي. أجاب على طلبها منه بالنزول لتناول العشاء بأنه لا يشعر بالجوع ورجاها أن تتعشى بدونه. أصرت عليه.. دون جدوى. لم ترتح لهذا الوضع اللامألوف؛ وانتظرت بقلق بزوغ الشمس في صباح اليوم التالي. لكن صبري نزل كعادته؛ حليقاً ومرتدياً ثياب الخروج ولا علامة عليه تدل على وجود ما يخالف طبيعة الأمور. أكد لها أنه لم يكن جائعاً ليلة أمس؛ ولم يكن مريضاً قط؛ فاطمأنت. بدا لها كأنه كان منشرح الصدر؛ أو هذا ما خيل إليها. كأنه..... كأنه كان مقبلاً أكثر من المعتاد على الحياة؛ وقالت في سرها إنشاء الله؛ وهى تجهد لارتقاء درجات السلم المتهدمة. كان الفضول مختفياً في قراره نفسها. فاتجهت رأساً إلى مكتب أبنها بعد أن اقتحمت غرفته.

كانت رزمة الأوراق المخططة التي رأتها أمس لا تزال مكانها على المكتب؛ إلا أنها الآن؛ و العياذ بالله؛ كانت مليئة بنقوش عجيبة لم تر لها مثيلاً من قبل. وإذ لم تكن أمية تماماً؛ فقد تركت المدرسة الابتدائية قبل السنة الرابعة؛ لذلك كانت على دراية بما هو لغة و ما هو خارج عنها. إنها ليست كتابة عربية؛ وليس عليها شكل الكتابة الأجنبية؛ فهي تعرف أشكال حروفها بصورة مبهمة. إنها إشارات حلزونية؛ تمتد على الخطوط التي سبق له وخطها على الورق؛ بعضها يلتوي أفقياً وبعضها الآخر يرتفع عامودياً برشاقة؛ كأنها زهرة متفتحة على غصنها.

أمسكت بقلبها يد القلق؛ قلق خفي من أمر مجهول يترصد بابنها وبها. أيكون صبري العزيز؛ قد صار ممسوساً أو أحاطت به أرواح سحرية من عالم آخر؟!

لم تنظف الغرفة كما تفعل يومياً ؛ وأسرعت ترتب الفراش ثم نزلت تختلي بنفسها في غرفتها أمام المنقلة. أرادت أن تهوّن على نفسها وتقنعها بأن الأمر غير خطير البتة؛ لكنها احتاجت للوصول إلى هذا الهدف؛ أن يقول لها شخص ما ذلك. حين ذاك انبثقت صورة المعلمة رسمية في مخيلتها. إنها النديم المثالي في مشكلتها الغامضة هذه.

لكن المعلمة رسمية لم تأتِ لزيارتها إلا في صباح اليوم الثاني. قالت لها أنها انتهزت فرصة عدم انشغالها بالدروس فأقبلت لتراها.

- نزلت من السماء يا عيني يا رسمية. تعالي معي؛ هيا؛ تعالي؛ أقول لكِ؛ تعالي معي.

كانَ صبري أثناء ذاك منكباً؛ في دائرته؛ على تسجيل المراسلات الصادرة و تلك الواردة مما أتاح للسيدتين الفضوليتين أن تصعدا إلى

غرفته وأن تقضيا فيها وقتاً مناسباً تملؤه الدهشة والاستغراب و الحسرة على ضياع الرجال، إذ كانت المعلمة رسمية؛ وقد جاوزت الأربعين؛ ذات طبيعة واقعية، فقد أقنعت الوالدة المقلوقة دون سبب معقول، أن تصوّر هذه الأوراق المشبوهة في الحال، وألا تظهرا أمام صبري أية علامة تدل على معرفتهما بها. و هكذا كان. ورغم الثقة الراسخة التي تحملها الوالدة في قرارة نفسها بالمعلمة التي جاوزت سن الزواج، فقد توسلت إليها وهى تودعها حتى باب الدار:

- ياعيني يا رسمية، الله يعطيك نصيبك، لا تعملي شيئاً دون أن تخبريني. أشعر بخوف لا أدري، سبحانه وتعالى، لماذا أدخله إلى قلبي. الدنيا ليست في أمان والشرطة في كل مكان، وهذا الزعيم عبد الكريم لا يدرى ما يعمل.... لا بنفسه ولا بنا. حبيبتي رسمية هذا ابني الوحيد، الله يسامح أباه وأجداده، وأنا لا أملك غيره، فلا تتورطي بشي الله يخليك. هل فهمت؟

احتضنتها المعلمة رسمية وقبلتها قبلتين، راجية منها بإلحاح ألا تخشى شيئاً فهي تحرص عليها وعلى ابنها حرصها على عائلتها.

كان في نية المعلمة رسمية أن تعرض صورة الأوراق على زميل لها في "مدرسة باب الشيخ الابتدائية للبنات "، يزورهم مرة أو مرتين أسبوعياً لتدريب الطالبات على إنشاد الأناشيد، ذلك أنها شكّت منذ البداية بأن تلك الإشارات لم تكن لغة أو ما شابه، بل كانت، ربما، تسجيلاً لما يسمى بالنوتة الموسيقية، ورغم غرابه هذا الافتراض، فإنها لم تجد له بديلاً، وسعت للاتصال بذلك الزميل مدعي الموسيقى وعرضت عليه ذلك اللغز الذى يخص السيد صبري.

لم ينس صبري، في طريق عودته إلى البيت من الدائرة، أن يمر على دكان القرطاسية ذاك ويشتري كمية من الأوراق البيضاء حملها معه ووضعها دون اكتراث على مكتبه بعد أن أخفى الأوراق السابقة المخططة والمنقوشة في كيس ورقي نحّاه إلى جانب.

استبدل ثياب الخروج بمباذل المنزل وغسل يديه ثم نزل للجلوس مع والدته.

قال معلم الأناشيد للمعلمة رسمية بعد أن ألقى نظره على ما جلبته له:

- طبعاً؛ أستاذة رسمية، هذه نوتة موسيقية. هذه " سولفيج "، نوتة موسيقية، ولكني لا أستطيع أن أقرأها. إذا أردت حملتها إلى جماعتنا في المعهد. أنهم يقرؤون "سولفيج".

وافقت على مضض. لم تدر لماذا كانت تمزج بين رغبتها الملحة في الزواج وبين هذه الخشية التي لا مبرر لها على السيد صبري، ذلك أن هذه الأمور، الموسيقى والفنون والشؤون الأخرى المماثلة، لم تكن موضع اهتمام السلطة، لأنها، في نظر السلطة، من سقط المتاع، فلِمَ الخوف إذن؟

صباح اليوم التالي وبعد أن خلا البيت من وجود صبري الذي لا طعم له ولا رائحة، أسرعت الوالدة التي تلبسها داء القلق، فاقتحمت غرفة ابنها الوحيد لتكتشف سبباً آخر يدعوها إلى الهلع. كانت، هناك على المكتب جنب المظروف الورقي الذي يحتوى على الأوراق المشبوهة الأولى، رزمة جديدة من الأوراق المخططة بعناية و المملوءة بالإشارات الغامضة تلك. شعرت بقلبها ينزل إلى أسفل قدميها وأصابها ضعف شديد فانهدت على الكرسي كمن فقد الحياة وهمست:

- ارحمنا يا ربي... يا أرحم الراحمين، ماذا عملنا لنستحق كل هذا ؟

سعى معلم الأناشيد إلى لقاء المعلمة رسمية بعد أيام خمسة أو نحو ذلك. كان متحمساً ومبتهجاً:

- أستاذة رسمية. وجدت لك الحل. أخذت تلك الأوراق إلى صديقي وذهبنا معاً لزيارة بروفيسور هنغاري مشهور، يدرّس الكمنجة في المعهد ويقرأ "السولفيج" كما نقرأ نحن الجريدة. إنه يتكلم الإنجليزية وأنا أيضاً. أحكي لكِ ما جرى بالترتيب يا أستاذة رسمية. عندما دخلنا عليه الغرفة كان يتحدث بالتلفون، فانزعج من رؤيتنا. تصوري كيف شعرت وأنا أرى أستاذاً كبيراً في الموسيقى ينزعج مني. سألنا بخشونة ماذا نريد، فعرفت أن صديقي السخيف لم يبلغه بزيارتنا، لذلك اضطررت إلى أن اعتذر إليه عدة مرات. والسبب تصرف هذا الصديق السخيف. ترددت في إعطائه الأوراق، لكني صممت أن أجعله يلقي عليها نظرة على الأقل. شعرت أن هذا من حقي، فأخرجتها من حقيبتي ووضعتها أمامه على المكتب بكل أدب و هدوء. الآن اسمعي جيداً، أستاذة رسمية. تناول الأوراق بتردد، وهو مقطب الجبين وظاهر الانزعاج، فندمت لأني أريتها له. ندمت في الحال، لكن، انظري.

ألقى ببصره عليها دون اهتمام، ثم إذا به ينظر إليها بتمعن هنيهات، أخذ بعد ذلك يحدق فيها كمن يرى عجباً وبدا عليه بعد دقائق كأنه فقد الشعور بوجودنا. هذه هي الحقيقة، أنقلها إليك كما جرت والله. غرق في الأوراق كما يغرق في مياه المحيط العميقة، وبقينا، أنا و صديقي السخيف، نتبادل النظر صامتين بخشوع. ماذا جرى للرجل البروفيسور؟ لا

ندري. ثم، بعد نصف ساعة أو يزيد، خرج من ذهوله واستغراقه، وقفز من الكرسي صارخاً بنا "أريد أن أراه. أريد أن أراه حالاً، أتفهمان؟" لم نفهم بالطبع. يريد أن يرى من؟ ثم عرفنا بعد لأي أنه يقصد الشخص الذي كتب النوطة. وهكذا يا أستاذة رسمية، فعليكِ أنتِ تقع مسؤولية إرسال الشخص الذي كتب الأوراق لمقابلة البروفيسور. أما أنا فقد انتهى واجبي.

لبثت المعلمة رسمية لحظات تتطلع إلى زميلها ملجومة اللسان. كان بودها أن تنفجر ضاحكة وأن تشد شعرها وتصرخ غيظاً ودهشة سألته:

- هل الأوراق معك؟ اعطني إياها.

أشار معلم الأناشيد بذراعه إشارة مبهمة إلى جهة مجهولة:

- لا تزال لدى البروفيسور. وضعها في درج وقفله أمام أنظارنا. قال لنا بصرامة "اجلبوا لي هذا الرجل. أقول لكما اجلباه لأراه " ماذا نعمل؟

- أية مصيبة هذه !

لم يكن أمام المعلمة رسمية أية فرصة لتحاشي إخبار والدة صبري بالمصيبة المعقدة التي فتحتا بابها بنفسيهما. ذهبت إليها بعد يومين، حين تسنى لها في الصباح أن تمتلك وقتها، فرأتها على أسوأ حال. كانت في فراشها متغطية باللحاف إلى رأسها، ولو لم يكن باب الدار مفتوحاً، لما استطاعت حتى الدخول. جلست الوالدة منتبهة بحدة على السرير حالما دخلت عليها المعلمة. كادت تبكي وهي تبادلها الاحتضان وتعاتبها لغيابها الطويل. ثم جلستا بصورة آلية وقررتا عقد اجتماع بينهما. كانت المصيبة، في نظر المعلمة رسمية، ذات شقين، يتصل الأول بالسيد

صبري و يرتبط الثاني بذلك البروفيسور المخبول. كانت الوالدة تشير بذراعيها كأنها تلطم على رأسها ولكن دون أن تمسه، وحين أخبرت المعلمة رسمية باكتشافها قبل أيام رزمة مشبوهة ثانية، أصاب الحوّل عيني المعلمة من شدة الدهشة.

ورغم حماسهما البالغ، إلا أنهما لم تتفقا إلا على قرار واحد.... الاختباء من العاصفة ودفن الرأس والعقل في الرمال، كما تفعل تلك النعامة الحكيمة. والغريب في الأمر، أن هذا القرار الباهت و الجبان أراحهما راحة كبيرة.

ومرت أيام قليلة، ثقيلة، وجاء أخيراً ذلك اليوم الذي يجب أن يسمى مشهوداً. صمم صبري في صباحه، أثناء ما كان منغمساً في عمله الروتيني، أن يشتري عند عودته إلى البيت رزمة ورق ثالثة. في الوقت نفسه، ذلك الصباح، وبصدفة لا تصدق، تراكض معلم الأناشيد في ساحة المدرسة ومن صف إلى صف، يبحث بجزع عن المعلمة رسمية.

أخبرها أن كارثة محققة ستحل بالجميع إن لم يسارعوا لإنقاذ أنفسهم، فذلك البروفيسور الهائج هدّد صديقه بطرده من المعهد وقطع رزقه إن لم يؤته بالرجل الذي سطّر النوطة. كما هدد بفصل معلم الأناشيد بنفسه وملاحقته حتى يوم القيامة. استأذنت المعلمة رسمية من مديرة المدرسة وخرجت بقلب مرتجف صحبة معلم الأناشيد، آملة أن تقابل البروفيسور وتقنعه بعدم جدوى مقابلة السيد صبري لأنها هي التي لفقت القصة بكاملها وكانت تكذب عليه.

استقبلها البروفيسور ببرود ولم تنفع معه أية حجة. هتف بالمعلمة بعد أن استمع إليها وعيناه تقدحان ناراً:

- أريد أن أرى هذا الرجل. أريد أن أراه وأكلمه. هل تفهمين يا غبية؟

فاستسلمت المعلمة رسمية لحكم القدر الجائر.

خرج السيد صبري من دائرة الطابو بعد انتهاء الدوام بقليل، وأخذ يسير ببطء قاصداً بيته. مر على دكان القرطاسية واشترى رزمته الثالثة. كانت الساعة تشير إلى حوالي الثالثة بعد الظهر، والسماء زرقاء مشرقة ولا أثر للبرد الذي هجم على بغداد قبل أيام، وكان السيد صبري يتهادى في مشيته شاعراً بثقل في نقل قدميه، لم يكن جائعاً أو متعباً من عمل النهار، وكان يحمل رزمة الورق ويرتقي بتثاقل مقدمة الزقاق حين خيّل إليه على ضوء الشمس الأحمر، أنه يرى أشخاصاً أربعة يقفون أمام دارهم. لم يشعر بأي اكتراث، حتى حين ميّز بين الجمع تلك السيدة المسنة التي اعتادت أن تزور والدته. حسناً إنها المعلمة رسمية. اقترب ببطء من الدار، وأراد أن يدخلها بسلام دون أن يلتفت إلى الواقفين، لكنهم تحركوا وتصدوا له.

كلمته المعلمة رسمية:

- مساء الخير أستاذ صبري، كيف الصحة؟

توقف عن المسير قرب باب الدار. لم يجبها. تبادل رجلان منهم الكلام بلغة إنجليزية ثم انبرى واحد منهما يكلم صبري بلهجة فيها حدة وحرارة. كان ممسكاً برزمة ورق أدرك السيد صبري حالما رآها انها تشبه رزمته. لم يفهم شيئاً من كلامه وبقي صامتاً. كان ذلك الأجنبي طويلاً، مليء الجسم، بشعر كثيف أشيب ولحية فرنسية دقيقة. تكلم أحد الواقفين بجانب الرجل الأشيب الطويل:

- أستاذ صبري، نرجو أن تعذرنا لتطفلنا عليك. هذا هو البروفيسور الهنغاري "كرشنر"؟ إنه أستاذ الموسيقى و"السولفيج" عندنا في المعهد. لقد قرأ نوطتك ويريد أن يتعرف عليك ويتحدث معك إن أمكن.

اندفع الأجنبي مرة أخرى يرطن بالإنكليزية، وعاد المرافق الذي تكلم يترجم هذه المرة كلام البروفيسور أثناء حديثه:

- يقول البروفيسور أستاذ صبري إن هذه المخطوطة الموسيقية التي اطلع عليها وعزفها مع أصدقاء له، هي أعظم رباعية وترية اطلع عليها منذ بدأ يدرس الموسيقى في بلاده قبل ربع قرن. إنها مؤلفة بأسلوب كلاسيكي متين، ولكنه أسلوب معاصر ولا مثيل له. هو يقول إنها ذكرته برباعيات "هايدن" و"بيتهوفن" خاصة "بيتهوفن" إن فيها روحاً غريبة وغير مألوفة. انه يريد أن يصافحك ويتحدث إليك.

وقدَّم الأجنبي ذراعه بجلال نحو صبري، فتراجع هذا قليلاً إلى الوراء. كانت في الجو شحنة من التوتر والغرابة وعدم الاستقرار؛ شعر بها الجميع ولم يعرفوا سببها. ثم؛ في لمحة زمنية تشبه لمع البرق؛ لم يتفق الحاضرون على روايتها بشكل صحيح، تقدم السيد صبري خطوة واسعة وخطف بخفة مذهلة رزمة الورق من يد البروفيسور وفتح الباب مختفياً وراءه ثم أغلقه بعنف، وسمع الجميع بوضوح القفل الحديدي يصطك من الداخل غالقاً أمامهم كل أمل برؤية السيد صبري أو محادثته.

اضطرب الجميع بشدة، كل على طريقته الخاصة، وأخذوا يتصايحون بلغاتهم و لهجاتهم المختلفة فترة طويلة دون جدوى. بدا لهم كل ما جرى

وهماً أو سراباً، لا حقيقة ولا واقعاً. خبطوا على خشب الباب بقبضاتهم حتى تعبوا؛ دون رد أو جواب. ولم ييأسوا إلى أن سمعت المعلمة رسمية بعد أكثر من نصف ساعة، صوتاً نسائياً خافتاً ومرتجفاً، يتسلل عبر الباب:

- عيني رسمية، يا رسمية، قولي من فضلك للسادة الأخوان إن إبني مريض ولا يستطيع أن يراهم أبداً يحفظك الله يا ابنتي، قولي لهم أرجوك.

كان الظلام قد غطى الزقاق بسكون وكان البرد في أمسيات بغداد الشتائية غداراً يتوجب الحذر منه، لذلك اضطر السادة الأخوان أن يتراجعوا أمام هذا العماء الحجري الذي واجهوه على حين غرة.

كان البروفيسور " كرشنر " يهدد بالهنغارية كلاماً لم يفهمه رفاقه، و كان هؤلاء حائرين، يتساءلون عما سيفعل بهم هذا البروفيسور المجنون.

عمان - كانون الثاني ٢٠٠٦

الاختيار

ما كان لي أن أتصور عودتي إلى محلتنا القديمة "باب الشيخ" بعد أكثر من عشر سنوات؛ لكن تلك العودة تحققت حين فتحت لي مكتباً للمحاماة مطلاً على شارع " الكفاح " فوق إحدى المقاهي المجاورة لمخزن "عبد الله الشيخلي".

كانت في الأساس فكرة أبي، الذي ذكرني بأن أهالي "باب الشيخ" هم أهلنا وهم الذين قد يلجأون إلينا في محنهم ومشاكلهم الحياتية، فاذهب إليهم وكن بجوارهم لتنفعهم وينفعوك.. وهكذا كان.

ولأجل اكتمال قيام المكتب بخدماته، فقد أرسلت بطلب " أبي مصطفي "، أحد سكنة "باب الشيخ" الأقدمين والفراش الذي خدم والدي حين كان قاضياً في محاكم بغداد المدنية، فحضر. رجوته أن يقوم بالإشراف على مكتب المحاماة الجديد الذي سأمارس العمل فيه.

كان الطريق إلى المكتب من دارنا في "الحارثية" طويلاً بعض الشيء؛ غير إني لم أتضايق منه؛ فقد رتبت أموري بحيث أصل إلى المكتب حوالي الرابعة مساء لأبقى فيه حتى الثامنة. ولأني لم أكن في ضيق مادي ولامسؤولاً عن إعالة احد غيري ، فقد أخذت افتتاح المكتب على انه خطوة أولى للتعيين بعد ذلك في مسلك القضاة مثل والدي وإخوته.

كنت ألقى "أبا مصطفى" حين وصولي ، وقد نظف الغرفة وفتح نوافذها ورتب الأوراق القليلة المرمية على المكتب وجلس ينتظرني. لم يكن قليل الكلام ولكنه كان يعرف حدوده بشكل حدسي؛ وخاصة عندما يرى انصرافي عنه وانشغالي بشيء آخر. كان يسكن على مبعدة مائتين أو ثلاثمائة متر عن المكتب، في منطقة شعبية من "باب الشيخ" تسمى محلة "الشيخ رفيع" وبسبب وجود "مدرسة باب الشيخ" الابتدائية للبنين في تلك المنطقة، ولأني درست فيها أكثر من أربع سنوات، فقد كان يمتعني أحياناً أن أسمع منه الوضع في تلك المنطقة وما صارت إليه، هي وسكانها. كان يتنبأ، ليس بدون أسباب، بأنها منطقة آيلة إلى الزوال، وأن أمور الزمان وتطلعات رجال السلطة تجعلها مكاناً وقتياً لا مستقبل له. سألته، بغير فضول، عن بعض الشخصيات التي كنت على ألفة في الماضي بأسمائها... " الحاج سبع " ومصلح الأحذية كريم القادري وابن البطاوية، فاستضاء وجهه بايتسامة سعيدة وأجاب بأن أحداً منهم لم يبق في " باب الشيخ "؛ حتى أحفاد " الحاج سبع " هاجروا حين أكملوا دراستهم ولم يعد يشوقهم أن يسمعوا أن جدهم كان صاحب دكان لبيع المواد المنزلية والخضر. تلك أمور مؤسفة ولكنها من ناحية أخرى، طبيعية. وإذ لم يأخذ " أبو مصطفي " فتح المكتب هذا بصورة جدية، ظاناً بأني كنت أتسلى على طريقتي الخاصة، أو أني لا أنتظر من أحد أن يراجعني في قضية قانونية، فقد أهمل إخباري بأن " عباس الحداد " يروم مقابلتي في شأن من شؤونه الشخصية، حتى تذكر ذلك ذات مساء فبدأ، على استحياء، يسرد لي حكاية " عباس الحداد ". هو شاب يعيش، مع والدته، وحيداً ويشتغل في الحدادة تبعاً لعمل أبيه الذي

توفاه الله منذ سنوات. أكمل الدراسة الابتدائية كما يقال وهو يملك، إضافة لدكان الحدادة، منزلاً صغيراً مجاوراً له. ورث ذلك عن أبيه؛ وكان لأمه حصة في الدار ضئيلة.

ما حدث " لعباس " خلال السنة الماضية هو أنه تعلق بإحدى الفتيات وسعى بجنون للزواج منها. كانت هي " حسنة " بائعة الخبز المتجولة. تقبل مع شروق الشمس حاملة على رأسها أقراص الخبز مرصوصة في صحن " الخيش " الواسع، وهي، في سيرها مبدية حنايا جسدها الفتي، تنادي على خبزها الحار. كانت في العشرين من عمرها؛ ذات ملامح جذابة وجسم متناسق، والتفاتات ونظرات لا تخلو من المعاني والدعوات. وكان " عباس " في خلوته النفسية والمادية، إنساناً معتصراً، يتلهف إلى الدنيا ومسراتها وهو يراها تمر سريعاً غير مبالية به. تبادلا التحيات والكلمات الساذجة والمبطنة، وأبدت له " حسنة " الجميلة منذ البدء أنها غير مهتمة به ولا طامعة بنيل حظوته.. هو الحداد المسكين الذي لا يكاد يحصل على رزقه إلا بمشقة. ثم إن هناك مما يزيد من مصيبة " عباس " سوءاً، والدته ولسانها الطويل وتدخلها في كل شأن صغير أو كبير في حياة ابنها. وتابع " أبو مصطفى" بأن" حسنة " كانت وردة المحلة ومطمح الشبان حواليها، كانت أخبارها وتحركاتها مرصودة من الجميع؛ لذلك لم يخف على أحد غيابها عن بيت والدتها الخبازة أسبوعاً بكامله دون سابق إنذار؛ وحينما عادت بعد ذلك لم يصدق أحد من سكان المحلة أنها كانت في بيت خالتها في " بغداد الجديدة "، ولم تفت عليهم ملاحظة تغير غامض في ملامحها وتصرفاتها. وكان المهموم الأول والوحيد بين الجميع هو " عباس الحداد "

الذي وقف موقفاً مغايراً وأبدى لها من العوطف ما جذبها إليه. وهكذا تزوجا أخيراً. كان ذلك منذ أربعة شهور مضت. لم تكن شهوراً عسلية بوجود " أم عباس " وبانشغال " حسنة " هي الأخرى بمساعدة أمها الخبازة ومعاونتها توزيع الخبز صباحاً ومساءً؛ وكان في صميم هذا الموقف المعقد، سرّ أراد الحداد المرتبك أن يراني بشأنه. حالما دخلت المكتب ذلك المساء، ورأيت شخصاً ذا وجه مألوف إلي حتى عرفت أن " عباس الحداد " كان أحد رفاقي في الصفوف الأخيرة في " مدرسة باب الشيخ للبنين " كانت سعادته بمعرفتي بالغة تفوق المعتاد؛ ولقد لاحظت تردده في احتضاني فأقبلت أنا على التربيت على كتفيه بمودة.

كان متغيراً بعد كل هذه السنوات؛ تبدو تقاطيع وجهه متضخمة بشكل غير طبيعي وشعره الكث خشناً في لون أسود دامس. غير أنه كان أليفاً يميل إلى سذاجة في الأفكار تقارب الغباء. تذكرت، وأنا أحادثه، أنه لم يكن من التلاميذ النابهين، فسألته هل حصل أخيراً على شهادة البكلوريا للصف السادس فأجاب بالنفي.

كان جالساً إلى جوار المكتب، يراقب بقلق " أبا مصطفي " في رواحه ومجيئه؛ ثم انتهز فرصة غياب هذا الأخير لجلب الشاي فسألني بصوت خافت إن كان في الإمكان أن ينفرد بي، فأجبته بالإيجاب وصرفت " أبا مصطفي " بعد أن قام بتقديم الشاي لنا ثم أغلقت الباب.

كان واضحاً أن " عباس الحداد " مشتبك في مأزق معقد بعض الشيء وكنت أتوقع كل شيء منه.

- أستاذ يمكن تعرف بأني تزوجت حديثاً فتاة من المحلة...

سكت فهززت رأسي.

- هي من عائلة فقيرة أستاذ.

- لماذا لا تترك لقب الأستاذ هذا، وتحدثني كصديق ورفيق قديم؟ اتفقنا؟

- نعم. نعم. شكراً. قلت إنها من عائلة فقيرة.. مثلي أنا. عوائل فقيرة وشريفة. هذا هو المطلوب. وتزوجنا بحسن نية؛ وهذا مطلوب أيضاً؛ غير أن الأمور تعثرت يا أخي الأستاذ.. لا أدري كيف ولا لماذا؛ سوى أن الدنيا انقلبت إلى جحيم بين ليلة وضحاها. هكذا هو الأمر. الوالدة يرضى الله عنها، من جهة والزوجة " حسنة " من جهة أخرى، وأنت عليم بما يحدث بين الاثنتين. لا مناقشة في الأمور. لا مناقشة أبداً. كل جهة تقطع رأس الأخرى؛ وأنا بينهما مقطع الأوصال يا سيدي. حسناً، قلت في نفسي... ما العمل أخيراً؟

ثم توقف " عباس " فجأة عن الكلام.

- ما العمل لأجل الخلاص أو ماذا؟

فبدت على وجهه دهشة واضحة:

- الخلاص؟! ما معنى الخلاص؟ كلا. كلا. الخلاص ليس هو الكلمة.. ليس هو المطلوب. كيف يمكنني أن أتخلص؟

- ماذا تعني؟ ألا تريد أن تلجأ إلى حل قانوني أساعدك عليه؟

- لا أدري يا سيدي. لا أدري. لدي معضلة كبرى.

ثم تلفت حواليه لحظات كأنه يريد التأكد مرة أخرى من خلو الغرفة. بدا عليه تردد غريب لم أفهمه. سألته:

- ألا ترى يا عباس بأن من المستحسن أن نتصارح.. وأن تحكي لي بوضوح عما تريد وكيف يمكنني أن أساعدك؟ أنت جئت تطلب

مساعدتي، أليس كذلك؟ كصديق وكمحام.. أليس كذلك؟

- صحيح والله يا أستاذ.. صحيح والله.

- إذن؟

تغيرت ملامح وجهه خلال ثوان؛ فصار كمن يعاني من ألم داخلي يريد أن يتغلب عليه فلا يقدر. أبعد نظره عني ومضى بعد هنيهات يخاطبني هامساً:

- أنا لا أقدر على الانفصال.. على الخلاص من " حسنة " زوجتي. لقد سلمت نفسها لي فعاهدتها ألا أخونها. قالت لي منذ البداية لماذا قبلت بي زوجاً، فرضيت ولن أخونها. قالت لي إنها.. إنها ليست باكراً.. فرضيت. رضيت بها على علاتها ولن أخونها. إنها كل شيء جميل في حياتي وهي كل ما أملك؛ ولكنها لا تطيق أمي ولا تريدها ولا تريد أن تراها.. رباه، ما العمل؟

صدمتني بعض الشيء أقواله ولم أصدقها. أتراه يهدف من أجل التغطية على أمر آخر؟ وما تراه يكون هذا الأمر الآخر؟

- اسمع يا عباس، لا أحد طلب منك أن تتخلى عن زوجتك..

قاطعني:

- عمن يمكنني أن أتخلى إذن؟ قل لي بربك.

سكت.

لبثنا ساكتين هنيهات، نتحاشى تبادل النظر. وإذ طال صمتنا حتى قطعه بعد حين دخول " أبي مصطفي " إلى الغرفة، فقد قام " عباس " مسترخصاً بالانصراف مسائلاً مني عما يمكن لرجل القانون مثلي أن يقترح ما يمكن أن يطلبه هو مني قانونياً؟

كانت تلك قضية قانونية شائكة بشكل خاص؛ فالقانون لا يختار

للبشر ما يتوجب عليهم اختياره. ورغم ما بدا كأن الوضع يحتوي على سفسطة كلامية لا نفع فيها، إلا أن الأمر لم يكن كذلك.

زارني " عباس " مرتين أو ثلاثاً بعد ذلك؛ يجلس على مبعدة من المكتب بأدب جم ولا يتفوه بالكثير من الكلام ولا يترك لي أن أحزر ما يريد أن يقول أو ما يجول في خاطره. وكان " أبو مصطفي " في أغلب الأحيان، يبذل جهده لكي يصير الجو بيننا عادياً وغير مشحون بأمور غامضة، فيروح يسرد أخبار المحلة ومجريات الأمور فيها؛ وكان "عباس" يصغى بانتباه لأقواله كأنه غير مشغول الفكر بأي شيء آخر. أراد "عباس"، مرة واحدة فقط، أن يكلمني على انفراد. سألني هامساً عما إذا كان القانون يعاقب بشدة على من يعتدي على أحد أبويه، فأجبته بالإيجاب شارحاً الأسباب لتلك القسوة في العقاب، فأيدني بحماس. كان، في جلسته، هادئاً بارداً. لم أود أن أتوسع معه في أمر خطير كهذا، متوجساً بإبهام أن أفكاراً لا تمت إلى الخير بصلة تدور في ذهنه. ولسبب لا زلت أجهله أضفت قائلاً:

- الاعتداء على أحد الوالدين، من أسباب الإعدام في القانون العراقي. هذه جريمة خطيرة جداً.

فأجاب:

- هذا حكم عادل.

وكانت في نظراته امارات هلع لم أجد لها مبرراً. ثم بعد أسبوع من ذلك الحديث أو حوالي ذلك، جاءني " عباس ". جلس صامتاً فترة طويلة، مثل تمثال من خشب؛ ينظر إلى الأرض أحياناً ثم يرفع بصره يتطلع إلى ما وراء النافذة أحياناً أخرى. كان في عالم آخر، وقد ازدادت

وحشته وعزلته. انتهز، بعد أكثر من ساعة خروج " أبي مصطفي " ليوجه إلي سؤالا غريباً بصوت متكسر:

- ألا يوجد في القانون مجال للرأفة بحق هذا.. هذا الذي يعتدي على أحد أبويه؟ أعني أستاذ... مراعاة ظروفه... أمور أخرى؟

حدقت في وجهه، في تلك الملامح المتغضنة السمراء، فلاحظت ارتجافاً بسيطاً في شفته السفلى. كانت عيناه السوداوان تضجان بنظرات قلق وجزع وارتياب.

- ماذا تريد أن تقول يا عباس؟

كان يفرك يديه ويعصر أحدهما بالأخرى. بدا وكأنه على وشك أن ينهار باكياً على أرض الغرفة. كلمته:

- إهدأ يا عباس وابعد عن ذهنك هذه الأفكار السوداء.

لم يجبني، إلا أنني قرأت في عينيه جواباً آخر. جاء بصيغة سؤال.. كيف يمكنني ذلك؟

وهكذا، كنت جالساً ذات مساء بمفردي بعد أيام، أشرب الشاي بهدوء في مكتبي حينما ارتج الباب وانفتح بعنف ضارباً الحائط خلفه ثم دخل "أبو مصطفى" كالثور الهائج، محمر الوجه زائغ النظرات، فصرخ عالياً:

- أستاذ.. يا أستاذي.. فعلها " عباس " لعنة الله عليه.

ثم تهاوى على أقرب كرسي وراح يمسح العرق عن جبهته ورأسه ووجهه:

- هكذا البشر هذه الأيام. لعنة الله عليه.

دمشق- كانون الأول ٢٠٠٢

البجعة

ألوان المساء تتغير وتتبدل وتتلاين، كأنها أمواج بحر لا مرئي. كنتُ أنظر إلى صفحة الغروب من السماء التي كانت تبين من شباك الشرفة العريض وأنا جالسة أمام المنضدة. كنت أرى تلك المساحة اللونية المتلاعبة، وأنا أتأمل في شعور غامض يتملكني، إني أرى بعينيه. أأرى بعينيه؟ أأرى من خلال ما يرى؟

كان أمامي، على الطرف الآخر من المنضدة، يتطلع مثلي إلى لوحة الألوان تلك بصمت. لم نتبادل الحديث منذ بعض الوقت؛ كنا نتبادل النظرات فحسب. عيناه أمام عينيَّ، تتكلمان بلغة أخرى، وترتفع حولهما الألحان والأغاني. ماذا يمكن أن نسمي كل هذا؟ تعودنا عليه منذ فترة، لا أدري متى. ربما كان ذلك منذ شهرين أو ثلاثة، حين قال إني بجعة بيضاء تشع نوراً.

- ولكني لا أملك منقاراً ولا عنقاً أو ساقين طويلتين؟

- قال.. كذلك.

فضحكنا، رغم أني لم أفهم كل شيء. كنت أستسلم لبعض ما أفهم منه، غير مبالية بما لا أفهم. كان هو أستاذ العربية ولست أنا. كنت تلميذته حسب، في تلك الأيام المضيئة من الزمن.

حدث ذلك الأمر بعد انتقالنا إلى شقة في عمارات الصالحية، أجرناها بسعر معقول بعد أن تركنا دارنا الجميلة في الحارثية عقب وفاة والدي المفاجئة. أرادت والدتي أن يساعدها الفرق بين الأجرتين على تحمل أعباء العائلة المادية. كانت شقة صغيرة ونظيفة تحمل الرقم (٦) وتقع في الطابق السادس من العمارة رقم (٤٠) التي لا يفصلها عن وزارة الثقافة والاعلام غير شارع ضيق شبه مغلق.

كنا ثلاثة.. أنا ووالدتي وأخي الصغير حمزة. أخي حمزة هو الذي اكتشف هوية جارنا الأستاذ عبد الأحد، الأستاذ السابق في تدريس اللغة العربية. كان يسكن الطابق السادس ويعاني، مثلنا، من تعطل المصاعد المتكرر. كنا، ونحن في الأعالي، غير بعيدين مع ذلك عن الأعماق السفلى؛ فحين يتعطل مصعد العمارة، كنا نتناوب النزول والصعود، أنا وأخي حمزة، من أجل قضاء حاجياتنا اليومية، تاركين والدتي مهمومة بشؤون البيت.

كان ذلك في ربيع سنة ٢٠٠٢ في شهر أيار، وكنت أنهيت من عمري ستة عشر عاماً، وبدأت أحيا ربيعي السابع عشر، شاعرة بطوفان في صدري، ينبع من أعماق فيٍّ تحتوي على رغبة مضنية للحياة وللنور وللحب. وبسبب هذه المشاعر المبهمة المتفجرة، لم يهمني كثيراً أن أرسب في مادة اللغة العربية وأن أعيد الامتحان فيها.

كانت الطيور في قفصها الواسع تتناغى وتتحرك باضطراب. سألته عنها فقال إنها تؤنس عزلته، فهو إنسان وحيد، وحيد، في هذا العالم. توفيت زوجته منذ زمن بعيد وتركه ابنه مسافراً إلى خارج العراق. قال:

– هذه الطيور، جاءت إليَّ برضاها. حطَّ طائر في أحد الأيام، في الشرفة فقدمت له صحناً مليئاً بالماء فشرب منه ثم طار ليستدعي طائراً آخر معه.

وهكذا تكونت الجماعة، فرتب لهم ما يشبه قفصاً وأغلق قسماً من الشرفة ليحميها من الرياح والمطر.

كانت الطيور هي الشيء المبهج الذي اكتشفه أخي حمزة لدى جارنا أستاذ اللغة العربية المتقاعد. بُهر بمنظرها وأصواتها وحركاتها وأخبرنا بما رأى فذهبت والدتي تقصد الجار حالاً وتسأل منه عن كيفية إنقاذي من ورطة اللغة العربية التي وقعت فيها. قالت إنه ابتسم مرحباً وأبدى استعداده لتدريسي ومعاونتي على النجاح. لم أكن رأيته ولا كان رآني، فوافقت مرغمة، مشدودة إلى رغبة غامضة لرؤية الطيور التي حدثني عنها حمزة.

ذهبت رفقة والدتي نزوره. لم أكن رأيته كما قلت، ولكني شعرت بوجهه أليفاً إليَّ منذ الوهلة الأولى. كانت بدلته قديمة، قاتمة الألوان؛ لكن صفاء عينيه غير العادي، أزال تلك القتامة عن منظره.

ماذا يحصل، إذن، بين الرؤية وتماس النظر وظمأ الأرواح وبين شؤون القلب المضطرب؟

لا شيء مفهوماً بالتأكيد؛ ولست أحاول منذ الأساس أن أفهمه. فما قد يبدو للبشر عاطفة ذات أبعاد معينة، كان لي الفة واطمئناناً وانسحاراً من نوع خاص. وما يراه الناس أحياناً ميلاً وانجذاباً، رأيته اندماجاً في النفوس وارتياحاً في الأعماق.

في أول صباح أزوره مع أخي حمزة، بداية شهر آب من تلك السنة

المضطربة، أبقى باب شقته مفتوحاً وجلسنا جميعاً وسط الصالة، تحت أنظار من قد يسلك الممر أمام الشقة. وكانت والدتي هي أول المارين الفضوليين. دعاها للدخول وأبدى لها خشيته، أمامي، من حاجتي لدروس مكثفة إلى حد ما. كم أخجلني ذلك! غير أني لم أعترض وتشاغلت بالتطلع إلى الطيور في عبثها البريء، غير مصغية إلى حديث أمي المشبع بالقلق على مستقبلي. كنت في داخلي مصممة على أن أستوعب دروس اللغة العربية بمساعدة الأستاذ عبد الأحد أو بدونها؛ وكنت، أكثر من ذلك، مصممة على النجاح.

كنا جميعاً، تلك الأيام المنحوسة، مسكونين برعب خفي مما ستجلبه لنا الأحداث القريبة من ويلات أخرى لم نتعرض لها بعد. كانت التهديدات بالحرب تزداد يوماً بعد يوم؛ ولم يدر أحد، ربما في البلد كله، كيف يأخذها حقيقة. أهي مهزلة جديدة أم مشروع آخر لمجازر أخرى؟ وكنت أسأله أحياناً عن كل هذا.

لم يجبني بصراحة. لعله لم يرد أن يخيفني؛ غير أنه رجاني أن أخبر والدتي بأن علينا أن نفكر بمكان ننتقل إليه في حالة تردي الأوضاع. أكد عليَّ مرات عديدة أن نتدبر مثل هذا المكان. ولا أدري أية إمارات بدت على وجهي بحيث سارع إلى القول:

- من أجل الحيطة والحذر.. لا غير.

فلما سألته:

- وأنت يا أستاذ.. ماذا ستعمل؟

ابتسم. كانت ابتسامة حزن ومرارة واستسلام وأسى:

- أنا سأبلغ السبعين من عمري بعد شهرين؛ وأنا، حتى لو بحثتُ

عن أحد أو عن مكان.. لما وجدته. ماذا تريدين مني أن أعمل يا صغيرتي.. غير أن أبقى مع الطيور؟

تلك الليلة لم أنم حتى ساعة متأخرة من الليل.

اجتزت الامتحان بسهولة أواخر أيلول ٢٠٠٢، وبدأت سنتي الجديدة في المدرسة الثانوية. انقطعت عن دروسي مع الأستاذ عبد الأحد. لم يقبل منا النقود التي عرضتها عليه والدتي وأبدى لها امتعاضه بشكل لطيف. وحين ذهبنا نزوره، أنا وحمزة، حاملين له معنا كمية من الكليجة صنعتها له والدتي، رجانا أن نجلس ونشاركه شرب الشاي.

كان عصراً خريفياً والساعة لم تجاوز الخامسة، وبقايا من أشعة الشمس الحمراء تقسم جدار الصالة إلى قسمين. وإذ انزوى أخي حمزة قريباً من قفص الطيور، بعيداً عنا، كلمني هو هامساً:

- كيف تقبلين بتقديم المال لي.. أنتِ خاصة؟

كان يبتسم والسعادة تطل من عينيه؛ ولما لم أجب وغرقت في محنة الخجل المعتادة، أضاف:

- يكفيني أن تكوني لي.. نوراً من الجمال والأمل.

لم آلف منه هذه الكلمات، هذا النوع من الكلام الذي كنت أتمناه في السر. لبثت ساكتة، أنظر إلى وجهه المبتسم، فمدَّ ذراعه بهدوء ووضع كفه الحار على يدي ثم ضغطها بخفة.

لم أنم تلك الليلة إلا ساعات قليلة. مكثت في فراشي أتقلب وأنا شبه محمومة. تأتيني صور وتبتعد عني ثم تعود؛ عيناه وكفه والطيور. وانتبه إلى نفسي ومن أنا ومن هو وما معنى كل ذلك. كانت الأسئلة تتضارب في ذهني بحدة، تقبل من لا مكان ثم تتلاشى في الفضاء. هل لأي شيء، أي معنى، ولِمَ يجب أن يكون الأمر هكذا؟

ومضى الخريف وصرنا نقترب من نهاية سنة ٢٠٠٢ ونذر العاصفة الهوجاء تزداد في سماء بغداد مثل غيوم سوداء. كانوا يريدون رأس العراق بكل ثمن؛ وكان وضوح هذا الأمر مرعباً بشكل لا يحتمل. لم أره لعدة أسابيع. أغلق بابه وتقوقع داخل شقته مع طيوره وكتبه. وكنت ممسوسة بتساؤل مقلق عما حدث وهل يحمل معنى ما؟ أم لعلي أنا، تداخلني المشاعر المزيفة وأحشر نفسي في أمور لا أعرف كنهها.

أبديت لوالدتي بأني بحاجة لمعاودة دروس اللغة العربية مع جارنا الأستاذ عبد الأحد. رأيتها تبهت بشكل واضح وتحدجني بنظرات نفاذة شكوكة. لم تجبني أول الأمر، ثم همهمت بعد لحظة.

- لا يجوز.

فاستغربت كلمتها وشعرت ببعض الاضطراب ينتابني. هل تتهجس شيئاً ما؟ وإذ وجدتني واقفة بسكون أمامها أنتظر جواباً، أردفت:

- لم يأخذ منا نقوداً. لا يجوز أن نستغله هكذا.

ولكني عرفت في دخيلتي أنها ستبقى تقلب الأمر على أوجهه في ذهنها حتى تصل إلى القرار المناسب. وهكذا طلبت مني أن آتي معها صباح يوم جمعة شتائي مشرق. طرقنا بابه. كان، عكس ما ظننت، بصحة جيدة وبمزاج حسن. لم نرد أن ندخل، لكن ترحيبه العريض بنا اضطرنا لذلك. كانت والدتي متوترة بعض الشيء، وكنت أحس بسعادة غريبة وأنا أتواجد معه في تلك الصالة.

تقبل منا فكرة معاودة التدريس بتلقائية، لم تدع لدينا أي شك بأنه إنسان محترم لا يجب المساس به بقضية النقود. كم بدت والدتي منبسطة القسمات ونحن نغادر شقته على موعد للقاء مساء ذلك اليوم.

جاء معي، كالعادة، أخي حمزة. أراد بمحض إرادته أن يأتي، منجذباً إلى رؤية مجتمع الطيور الذي كان يخلب لبه.

أبقى الباب مفتوحاً وقدم لنا الشاي مع الكعك. تجرأتُ وسألته عما إذا كان ترك الشقة خلال الأسابيع الماضية، لأننا لم نره تلك الفترة، فابتسم:

- لكِ الحق. لم أفتح باب الشقة زمناً طويلاً نسبياً. تساورني نزعات الانعزال عن الناس، بين فترة وأخرى؛ وغالباً ما استجيب لها. يجب أن نحترم ما ينبع من أعماقنا بصدق. لقد غرقت مع الموسيقى، في تصفح أوراقي القديمة ومكتبتي، فمضى الوقت دون أن أشعر به. هل استوحشتِ دروس اللغة العربية؟

كان وجهه محلوقاً بعناية وشاربه الكث أبيض تشوبه بعض الشعيرات السود. كان أشيب شعر الرأس، كثيفه؛ غير أن حاجبيه بقيا أسودين.

كنت أشرب الشاي، جالسة بتحفز على كرسي مريح جنب مائدة منخفضة وضعنا عليها كتب الدراسة.

أجبته:

- لقد كان مبتغاي أن أنجح كما تعلم؛ لكني، لا أدري، أخذت أحس برغبة طاغية لدراسة العربية. إنها لغتي.

وضحكت:

- أعني أنها تواتيني تلقائياً، دون جهد أحياناً.

- ولو تعلمين يا فتاتي الصغيرة، أية نعمة كبرى أسبغت عليك! فلا شيء يضاهي قدرة التعبير بسهولة عن الذات والأفكار.

ثم أردف وهو يقوم حاملاً معه أقداح الشاي:

- وهل ستفيدك هذه النعمة إذن؟

- ماذا تعني، أستاذ؟

- أعني.. متى ستبدأين بالتعبير عن ذاتك؟

كان يقف على مبعدة مترين مني، يتطلع إليَّ متسائلاً ومن عينيه الصافيتين تنبعث نظرات ود واهتمام. مكثت صامتة، ابتسم ببلاهة. كانت حزمة من أشعة الشمس ترتمي عليه، فيبدو كأنه مخلوق مضيء، وكنت أراه أمامي إنساناً آخر. ومنذ تلك اللحظة... هل أستطيع حقاً أن أقول.. انبثق في نفسي شعور غامض يتجه نحوه، شعور شجي بالاطمئنان والتفاهم كان يملأني ويجعلني، خفية، بالغة السعادة على مدار الساعة.

في ذلك المساء، حين قمنا، أخي حمزة وأنا، نروم الانصراف، ذكرني هو بما قاله لي قبل أكثر من شهر عن وجوب انتقالنا إلى مكان أكثر أمناً من شقتنا الحالية.

- تعالي، تعالي انظري، إذا لم تكوني قد رأيتِ بعد.

أشار إلى بناية وزارة الثقافة والإعلام عَبر الشارع، وأضاف:

- لاحظي هؤلاء المراسلين الأجانب، يدخلون ويخرجون ويراقبون. لقد بنوا لهم أكواخاً في شرفات الوزارة وعلى سطوح الغرف. إنهم ينتظرون، مثلنا، يوم القيامة.

أصابني قلق شديد وأنا أخبر والدتي بما قاله لي الأستاذ عبد الأحد وما شاهدته بنفسي. كانت على علم بما يجري فطمأنتني وبيّنت لي أنها اتخذتْ الاحتياط اللازم واتصلتْ بأقارب لها في بعقوبة وسننتقل في

لوقت الملائم. لكن القلق بقي يخزني أياماً عديدة، ولم أفهم السر في ذلك إلا حين ذهبنا أنا وحمزة لدرس اللغة العربية فوجدناه واقفاً أمام الشباك، يتطلع إلى الخارج بسهوم. كان قد ترك الباب مواربا ولم يسمع طرقاتنا الخفيفة فدخلنا بعد أن رأيناه واقفاً وقفته تلك.

- إنهم يزدادون يوماً بعد يوم، من كل أنحاء العالم ومن كل الأجناس. لا يريدون أن تفوتهم مشاهدة ذلك اليوم العظيم. هل تدرين؟

كان يكلمني بإلفة:

- حين يبدأون بالمغادرة فستكون تلك هي الإشارة.

ثم دعانا للجلوس فجلست وأنصرف حمزة إلى جهة الطيور، بينما اتجه سائراً إلى المطبخ لتحضير الشاي. لحظتئذٍ، وأنا أراقبه يمشي ببطء، عرفتُ أن القلق السري الذي يسكنني، سببه جزعي من المستقبل الذي سيواجهه، وحيداً، هذا الرجل. ولم أسأل، لا نفسي ولا الآخرين، عن علاقتي بذلك؛ فقد كنت غارقة في موجة من عواطف لم أعهدها قبلاً.

في ذلك المساء، استطعت أن أكتم مشاعري تماماً وأن أفيد من دروس اللغة العربية فائدة جلى. إلا أني، بعد أسابيع، أخذت ألحظ في نفسي نزوعاً ملحاً كي أزيد من وقت وجودي معه ومن وقت التحدث إليه. كان ذلك أواخر سنة ٢٠٠٢؛ حين أفضيتُ لوالدتي بحاجتي إلى زيادة ساعات دروس اللغة العربية. كانت تشتغل في المطبخ. تعد لنا عشاء خفيفاً، فالتفتت إليَّ. لم أرَ وجهها ينطق بالشك والانزعاج مثل تلك اللحظة.

-لماذا لا تنتبهي هكذا إلى تصرفاتك، يا ابنتي؟

-هل تظنين أني أخطأتُ في شيء.. أم ماذا؟

-يُفترض بك أن تلاحظي.. أن تلاحظي العلاقات وحدودها.

تراجعت عن مناقشتها في الحال، فقد أحسست بها تمسني في موضع يؤلمني أن يمسه حتى جناح فراشة. ولكننا، مع ذلك، ذهبنا جميعاً لنسهر عنده في ليلة رأس السنة.. والدتي وحمزة وأنا والهدايا التي حملناها معنا إليه. قال إنه مسيحي لأنه ولد لأبوين مسيحيين وكان بوده أن يكون مسلماً مثلنا.

لم أصدم بأقواله هذه، ولم أكترث بنظرات والدتي المستنكرة إليه، فقد كنتُ أعرف كل هذه الأمور عنه؛ غير أن فكرة طرأت على بالي ذلك المساء ونحن منغمسون في أحاديثنا عما سيفعله هؤلاء الأمريكان بنا وبأفراد السلطة، ملخصها أن استفسر منه بالذات ليوضح لي حقيقة مشاعري نحوه؛ فهو، بعد هذه الحياة، يجب أن يكون عارفاً بكل شيء وأن يكون بمقدوره أن يحل الألغاز والأحاجي الباطنية.

ولكنه لم يرد أن يجيب؛ ولم أتوقع ذلك. لعل اقترابي من تلك القضية الشائكة كان خاطئاً. كنت أدور حولها ولا أتوجه نحو الهدف. سألته:

-أأنت سعيد؟

كان ذلك في أمسية باردة ونحن على جهة من الصالة، جالسين كالعادة أمام المنضدة المنخفضة. قال:

-آه.. همزة الاستفهام.. هذه الهمزة يصح أن تدخل على الجملة الفعلية والجملة الاسمية مطلقاً. يمكنك أيضاً أن تستعملي "هل" وتقولي.. هل أنت سعيد؟ سوى أن "هل" تختص بالتصديق الإيجابي.

كانت عيناه المغرورقتان قليلاً، تنطقان بأمور أخرى فهمتها أنا على طريقتي الخاصة. لم أستطع منع نفسي من الابتسام وهمست:

-لماذا؟

فابتسم هو أيضاً ولبث ساكتاً يتأملني هنيهات:

-أنت تعبثين يا صغيرتي برجل بائس مسن! لماذا؟

-لأن ذلك يسعدني.

-آه.. السعادة!

-ألا توجد؟ ألا نبحث عنها جميعاً؟

-بالتأكيد. كلنا نبحث عنها، وغالباً ما نجدها وراءنا.

-أنا لا أجدها ورائي. أنا أعيشها هنا وأنا معك.

رأيته يبتعد بناظريه عني ويتطلع إلى جهة الشرفة.. حيث الطيور تتناغى فيما بينها وتتعابث. فارقت فمه الابتسامة وغامت عيناه بعض الشيء لحظات وهو في ذهوله، وأنا، دون حراك، أنتظر كلمة منه. ثم عاد إليَّ. ابتسم ابتسامة عريضة سعيدة:

-أنت إذن استثناء من القاعدة. متى أمكنك أن تصلي إلى هذا المستوى الرفيع؟

وإذ التزمت الصمت دون أن أميل ببصري عنه، قام بغتة متجهاً إلى المطبخ:

-سنشرب الشاي.

لم أنم بهدوء تلك الليلة. صار ذلك تقليداً مزعجاً يداهمني كلما انفعلت وفارت دمائي وأفكاري.

إلا أني كنت، رغم ذلك، مبتهجة وأنا أتقلب على فراشي. لقد تجاوزتُ حدودي وسرت على طريق أمنياتي. ذلك إنجاز يجب أن يُحسب لي. وخلال تلك الليلة خطرت لي فكرة صممتُ أن أفاتحه بها. فما دام لا يريد أن يتجاوز الحدود مثلي، فعليَّ إذن أن أجعله يفهم.

سألته:

-هل تظن أن للأرواح أعماراً؟ أم أنها تقاوم الزمان، أو بكلام آخر لا تأبه بالزمان؟

كان ذلك أوائل شهر شباط ٢٠٠٣. لاحظت عليه أنه كان متوتراً في جلسته وفي إيماءاته وكلامه. بدا لي أنه صار شخصاً مختلفاً خلال الشهرين الأخيرين. لم يكن يخفي عني ارتياحه لوجودي معه في الشقة وللحديث الصريح الذي نتبادله أحياناً. كان تلقائياً لا يشعر بأي حرج. أما هذه الأيام..

-هذا موضوع جميل للإنشاء، ولكن..

نظر إليَّ بتساؤل ومرارة:

-أأنت خالية البال إلى هذه الدرجة؟ ألا تسمعين طبول الحرب تدق على أبواب بلدك.. العراق؟

خجلتُ وأردت ألا يظهر الخجل عليَّ أمامه:

-هذه همزة الاستفهام. لقد أدخلتها في جملة أسمية وأخرى فعلية.. أليس كذلك؟

فأغلق عينيه هنيهة متصابراً ومَدَّ ذراعيه بحركة لم أتوقعها فاحتوى كفيَّ بكفيه:

-يابنيتي.. يابنيتي، ماذا تفعلين بنفسك؟!

ثم انحنى برأسه ولثم ظاهر يديَّ اليمنى واليسرى.

كنت أرتجف انفعالاً وجنوناً وسروراً، وشعرت بقلبي يكاد يقفز من بين الضلوع. ثم سمعته:

-الأرواح لا علاقة لها بالزمن. هذا صحيح، ولكن الزمن يعبث

بعلاقات الأرواح. إنه يصيبها في مقتل عن طريق الأجساد. الأجساد.. الأجساد، هذه هي التي تفنى وتأخذ الروح معها.

وجدتني أسحب يديَّ وأخفيهما في حجري هامسة:

-لا أفهم هذه الأقوال ولا أريدها. لا أحبها ولا أريدها. افهمني. افهمني.

-ليتني لا أفهمك يا صغيرتي.

كان حديثاً بين روحين؛ شعرت وأنا استرجعه بارتجافة غبطة تخترق جسدي. كنا نتحاور؛ كنا روحين تتحاور فيما بينها. يا لله.. ما كان أجمله من حوار!

كنا بمفردنا فقد انصرف أخي الصغير قبل ذلك بفترة قصيرة، ولم يكن لدي أي سبب يدعوني للافتراض بأن حوارنا ذاك تعدانا نحن الاثنين، غير أني دهشت إذ وجدت والدتي كأنها على علم بكل كلمة تبادلناها. أخذت، منذ ذلك المساء بالتحديد، تخزرني بنظرات حادة لم أألفها منها قط قبلاً. وبسبب خشية باطنية ساورتني، لم أفكر بمفاتحتها عن معاودة الدروس والذهاب إليه.

كنا، مع ازدياد خطر الحرب، نتحرك لتدبير أمر سفرتنا إلى بعقوبة في موعد ملائم.

كانت والدتي تجمع أشياءنا وترتبها وتحزم بعضها وتتصل هاتفياً كل يوم تقريباً بأقاربنا وتسألهم وتستوضح منهم عن أمور شتى، وهي مقطبة الجبين منقلبة السحنة. لم أعهدها هكذا، وأرجعت السبب للظروف العصيبة التي نمر بها، وكان الوقت يمضي.

ثم حدث في الأسبوع الأخير من شباط أن تملكتني رغبة حرّى، لا

أدري كيف ولماذا بزغت في نفسي، رغبة تدفعني كي أراه وأكمل حديثي معه. كنت أريد أن أقول له بأن لا جدوى من التظاهر، فأنا أجدك أنت الروح القريبة لروحي. لا تحدثني عن الأعمار فأنا أجهل ما هي ومن فرضها علينا. قل لي فقط.. أأنا على حق؟

أخبرتها، كذباً، بأن لدينا امتحاناً صعباً في اللغة العربية، ويتوجب أن أراجع دروسي مع الأستاذ عبد الأحد.. فهاجت على حين غرة وهجمتْ عليَّ ممسكة بكتفيَّ، تهزني هزاً عنيفاً وتصرخ:

-لا دروس، لا دروس لعينة بعد الآن. أيتها الوقحة.. هل تظنينني بهذا الغباء؟ قولي. قولي.

ذهلت ذهولاً عظيماً واستولى عليَّ ضعف شديد فانغلقتْ عيناي وكدت أغيب عن الوعي وأنا مضغوطة بين ذراعيها. صدمني انكشاف سري هكذا علناً وتوسلت بوالدتي أن تتركني لحالي. كانت، هي الأخرى، مرتاعة ومصدومة نفسياً، فمكثنا، نحن الاثنتين، طريحتي الفراش أياماً ثلاثة. وكان علينا، بعد ذلك، في بداية شهر آذار ٢٠٠٣، أن نتهيأ حقاً لمفارقة تلك الأماكن التي يحيط بها الخطر. قيل بأن الغزو آت لا محالة وأننا نعيش ضمن دائرة الخطر بجوار بناية وزارة الثقافة والاعلام التي، لاشك، ستكون هدفاً أكيداً للصواريخ.

كانت والدتي تحاول أن تحسب لكل التوقعات حسابها؛ فهي تريد أن تنقذ العائلة من دمار قد يحل بها، وهي، من جهة أخرى، لا تريد أن تقضي وقتاً أطول مما يجب في بيت أقربائها؛ لذلك كانت تبحث في ذهنها عن الوقت المناسب للابتعاد عن الشقة. ولم تكن تدري كيف تصل إلى حسم هذا الأمر.

وإذ أصابها اليأس من إيجاد الجواب الشافي لهذا السؤال العويص فقد تبرع به عليها صغيرنا حمزة. قال إنه يتذكر أن الأستاذ عبد الأحد أخبرنا يوماً بأنه يعرف بالتقريب متى ستبدأ الحرب. نظرت إليه شزراً ولم تنبس بكلمة فاستمر حمزة:

-قال لنا إنه يراقب المراسلين الأجانب باستمرار، ويعرف عن يقين أنهم حين يجمعون آلاتهم ومعداتهم ويتهيأون للهرب، فان معنى ذلك أن الحرب على الأبواب.

ثم التفت إليّ:

-ألا تتذكرين؟

هتفت به والدتي:

-متى كان ذلك؟

-منذ أسابيع.. لا أدري.. حين زرناه في إحدى المرات.

ابتعدتْ منزوية في جهة من المطبخ وعلى وجهها سمة تفكير وانزعاج تحاول إخفاءها. كانت شبه منسحقة تحت وطأة المستقبل المهدد، ولم تدر، أمام المخاوف الرهيبة التي تتباين في الأفق، كيف تحمي عائلتها الصغيرة. ثم، بعد لأي، قررت أن تقصد شقة الأستاذ عبد الأحد. اتخذت هذا القرار بعد دقائق من حديث حمزة. وضعت شالاً يخفي رأسها وكتفيها وطلبت بحزم من الصغير أن يرافقها. حافظتُ على سكوني منتظرة تصرفها. وجهت إليّ، قبل أن تخرج، عدة كلمات قصيرة:

-أنتِ تبقين في الشقة، لئلا يتصل بنا أحداً تلفونياً.

لبثت أراقبهما، واقفة وراء الباب الموارب، وهما يسيران بعجلة مجتازين الممر الحجري الضيق.

سلمت والدتي على الجارة أم عبد الله التي تترك باب شقتها مفتوحاً على الدوام، وتوقفت قليلاً تثرثر معها. كنت شقية بشكل لم أتصوره؛ كأن ثقل السماء انهار على كتفيَّ. منعتني من رؤيته هكذا بكل بساطة! ماذا يساورها بشأني؟ وكيف.. كيف سيمكنني أن أراه وأن أحدثه وأفضي له بأفكاري ومشاعري؟

ثم رأيتهما يتوقفان أمام بابه وتطرقه والدتي. فتح لهما وأغلقت أنا الباب.

منغمرة بذهولي وأنا جالسة بمفردي في الصالة الفارغة، تناوشتني خواطر متضاربة. ماذا أريد منه؟ ماذا بمقدوري أن أقدم له؟ وكيف تسنى لي أن أتجرأ؟ وما هي هذه المشاعر التي يفيض بها قلبي؟ وما مدى إخلاصي بشأن كل هذا؟

ثم وجدت نفسي منساقة للإمساك بالقلم. تناولته وأمسكت به أمام الورقة البيضاء. إلا أنني ترددت ثم نكصت. لم أعثر على كلمة واحدة أدونها. بدا لي أن ما بي يعلو على الكلمات؛ وأن هذه الإشارات التي اعتاد استعمالها البشر منذ آلاف السنين، تعجز عن مساعدتي. كانت تلك محنة إضافية أخرى. وبقي التردد مستولياً عليّ وأنا أنتقل، ضمن تساؤلي الذاتي، من مستوى إلى آخر. أيمكن إذن أن أكون متمردة من نوع جديد.. لا أحب المقاييس القديمة ولا المتعارف عليها ولا حتى الطبيعية؟ وهل يكون الجنون على شكل آخر؟

رجعت والدتي مبتهجة بغباء. كانا، الاثنين، مبتهجين، هي وحمزة؛ وكل واحد منهما لسبب مختلف. الصغير أسعدته الطيور ووالدتي طمأنتها أقوال الأستاذ. أكد انه يضمن لها بأن يخبرها عن الوقت الذي يتوجب علينا فيه أن نغادر، فارتاحت لكلامه.

لم تقل.. هل سأل عني أم لا؛ الصغير حمزة هو الذي نقل إليَّ تحياته، فشعرت بأن هذه السيدة والدتي، إنسانة يجوز عصيانها.

كنا، في نهاية الأسبوع الأول من شهر آذار، على يقين تام من اقتراب العاصفة، وكنت مع بقية تلميذات المدرسة قد فهمنا بغموض بأن من العبث أن نستمر على الدوام؛ غير أني لم أجد حاجة لأخبر والدتي بذلك. طرقتُ، يوماً، بابه في الصباح الباكر، فلم ألقَ جواباً. أكان مستغرقاً في النوم.. أم لم يرد أن يراني؟

لم أعاود الطرق. كنت خائفة، مرتجفة الأوصال؛ وكنت، أكثر من ذلك، منزعجة بعمق من المعنى الذي يحمله هذا الخوف والارتجاف. أيكون دمي، لا عقلي فحسب، مرتبطاً بذلك الميثاق الأجوف الذي يشدني إلى هؤلاء؟

عدت بعد جولة طويلة في الشوارع فأخبرت والدتي بأن الدوام صار متقطعاً ولكن علينا، مع ذلك، أن نداوم. كنت أريد أن أجدد المحاولة، بعذر أم بغيره؛ وكنت أشعر بأن الوقت لم يعد يتسع لأي إمهال.

أتذكر ذلك الضحى من يوم الأربعاء، الثاني عشر من آذار ٢٠٠٣، حين طرقت عليه الباب ثانيةً. كانت الساعة تقترب من العاشرة. أدهشه حد الذهول أن يراني واقفة باضطراب أمامه. لم يدعُني للدخول، ولم يكن أمامي إلا أن أدخل، فاندفعت مارقة جنبه.

لبثت صامتة، خافقة القلب، وأنا استند بظهري إلى الحائط في المدخل الضيق. لم يغلق الباب تماماً، والتفت إليّ يكلمني بصوت خافت:

-صباح الخير. مابك يا صغيرتي؟ إهدئي قليلاً.

-العفو أستاذ عبد الأحد، اعذرني. أرجوك. أردت أن أكلمك فقط.

-وأنا أيضاً. تفضلي. هل أرسلتك والدتك؟

-كلا.

ولم أتحرك من مكاني. قال:

-كنت أريد أن أكلمها. حان وقت الاستعداد للسفر كما يبدو. لم يبق وقت طويل وعليكم أن تبتعدوا.

-وأنت؟ وأنت؟

-تعالي أجلسي. لا تضطربي هكذا. هيا، اجلسي.

بقيت واقفة، بإصرار، مكاني. عادت إلى وجهه الدهشة ونظر إليَّ متسائلاً. همستُ:

-هل تقف ضدي أنت أيضاً؟

كانت عيناه متعبتين، صافيتين، حزينتين:

-لماذا تتكلمين هكذا؟

-لأني وحيدة وعزلاء في هذا العالم. قل لي أأنا على خطأ لأني في السابعة عشرة من عمري، ولأني...

وسكت وأنا ألهث. وضع يده برفق على فمي:

-لا تكملي، أرجوك.

ثم برفق، بغاية الرفق، أمسك بذراعي التي تحمل الكتب المدرسية وقادني فأجلسني على كرسي أمام المنضدة المنخفضة حيث اعتدنا الجلوس. كان عليها كتاب استطعت، في لحظة، أن أقرأ عنوانه "موديراتو كانتابيل". وجلس هو أيضاً. كان يتطلع إليَّ كأنه يراني من بعيد أو كأني على مسافة قصية منه. قال وهو يمسك مرة أخرى بيديّ ويضغطهما بين كفيه:

-أنا آخر من يقف ضدك. لا تظني أني لا أفهمك. ولكن.. أتعلمين؟ هناك أمور مستحيلة في الحياة، هنالك مستحيلات كثيرة، وأنت يا صديقتي الغالية، تواجهين واحداً منها. أنا أخشى عليك من نفسكِ. أنت تريدين أن تتخطي الحدود، وهذا أمر غير مسموح لكِ به. ولكني، مع ذلك، سعيد بك ومزهو بما أراه منك. أنتِ روح نادرة، متعالية، شفافة؛ ونحن.. أنتِ وأنا.. لا مكان لنا هنا.. هنا.. ألا ترين؟

أردتُ أن أقول له بأني لا أريد تحقيق أمر ما، ولا أريد منه شيئاً معيناً؛ واني أكره هذه الارتباطات الحياتية المعهودة، ولا أدري كيف وصلت بي الأمور إلى أن أصير بهذه الحال المشتتة.. إلا أني لم أفه بكلمة. سمعته يسألني:

-أليس كذلك؟

فأجبت بهمس:

-نعم.

ثم سحبتُ بلطف يديَّ من بين كفيه وقمت. سألته:

-ستبقى هنا؟

فهز رأسه ووجهه الحزين يطفح بالقلق.

لم أره بعد ذلك؛ وبعد أيام حين جمعنا أشياءنا وخرجنا حاملين الحقائب، أرادت والدتي أن تمر عليه لتشكره على ما قدم لنا من نصائح وخدمات، لكنه لم يكن في الشقة. أخذنا طريقنا إلى بعقوبة فوصلناها والشمس تغيب.

رحب الأقارب بنا وحشرونا في غرفة باردة في الطابق الأرضي. خلال الطريق والسيارة تهزنا، كنت أشعر بالعبرة تستقر في أعلى صدري. كنت أفكر بكلماته وما كانت تدل عليه وبماذا كان عليَّ أن

أجيبه بدل السكوت. أكان بوسعي حقاً أن أشرح له حالي التي لم يفهمها تماماً وأن أبيّن له بأني لا أريد منه شيئاً ولا أريد مطلقاً تلك الارتباطات الحياتية؟ أم أنني كنت، بعد كل شيء، عاجزة عن النطق بالكلمة، لأنني ربما روح، كما قال، لا علاقة لها بهذا العالم التعيس؟

وإذ انفتح علينا باب الجحيم ونحن منزوون في جحرنا الرطب البارد، وبدأتْ الانفجارات والأصوات الوحشية تتكالب على رؤوسنا دون رحمة ودون اكتراث، وأنا منكمشة على نفسي والهلع يرجفني ويكاد يفقدني الصواب، كنت أنتقل بعيداً، ذاهبة بفكري وقلبي إلى بغداد، إلى تلك الصالة الهادئة التي صارت لي فردوساً مفقوداً، وإلى الشخص الوحيد الذي يهمني بقاءه على قيد الحياة. وخلال عشرين يوماً من حرب المتحضرين هؤلاء الوحشية بكل معنى الكلمة، وفي غمرة الأخبار المفجعة عن الخراب الشامل والتقتيل الجماعي ومجازر الأبرياء، كنت أفكر فيما سيقول لي وفيما سأقوله له. لعله أراد أن يشرح لي مدى الاحباط الذي يشعر به والذي يحيط بنا ويحيط بعالمنا كله. وكنت أفكر، بعد هذه الأسابيع المظلمة من الجزع والارتعاش والأفكار السوداء، ان باستطاعتي أن أقول له بأن علينا، رغم كل شيء، أن نجابه هذا الاحباط الذي أوحى به إليّ وأن نفعل، من أجل إنقاذ سعادتنا، ما نشاء ما دمنا يائسين إلى هذا الحد. أليس اليأس هو الذي يفتح أحياناً باب السعادة؟ كنت مجنونة بأفكار من هذا النوع بعد توقف القتال وسقوط التماثيل. أراد منا الأقارب أن نبقى في بعقوبة فترة أخرى، غير أن والدتي وأنا أصررنا على العودة، كل منا لأسباب مختلفة. هي قلقاً على شقتنا وأنا، لهف نفسي، قلقة عليه.

وجدنا بصعوبة سيارة أجرة تقلنا إلى بغداد. كان الجو ملبداً، ملوثاً

بأنفاس المحاربين وبرائحة القتلى وبدخان الحرائق، وكانت بغداد، مدينتي العزيزة، مرمية على الأرض، مثخنة بالجراح.

وصل إلى سمعنا قبل أيام من رجوعنا، أن بناية وزارة الثقافة والأعلام قد قصفت بعنف عدة مرات بصواريخ موجهة وانها دمرت عن آخرها. كان ذلك الخبر من الأسباب غير المباشرة لإسراعنا بالعودة.

وصلنا باعجوبة إلى مجمع العمارات في الصالحية. كانت الساحة شبه خالية فركضنا نحو عمارتنا وأخذنا نصعد السلالم التي بدت لنا بغير نهاية. كانت القاذورات تسد علينا الطريق في بعض الأدوار والروائح الكريهة تملأ الجو. وصلنا طابقنا السادس لاهثين وركضنا نحو شقتنا خلال الممر المترب. كان باب شقته مغلقاً وعليه آثار كسور. ولم نسر إلا خطوات حتى برزت أم عبد الله من باب شقتها بعد أن سمعت خطواتنا. كان وجهها مطبوعاً بطابع الارتياع والذهول. صرخت إذ رأتنا:

-أنتم! الحمد لله. الحمد لله على سلامتكم. الحمد لله.

ثم احتضنت والدتي مجهشة بالبكاء. أخبرتنا أن صاروخاً سقط قرب الدار العائدة لأخيها في الجعيفر والتي لجئت إليها، ففضلت أن تعود إلى الشقة بعد أيام من بدء الحرب.

رافقتنا ملتصقة بنا ونحن نسرع نحو شقتنا. كانت مضطربة، لاتني تتكلم وتشير بيديها دون انقطاع. قالت إنها كانت في شقتها حين سقط الصاروخ الثاني على بناية الوزارة فارتجت الأرض وتمايلت العمارة كلها، فتملكها الهلع وخرجت من الشقة مثل بقية الساكنين. وجدت الأستاذ عبد الأحد متكئاً على باب شقته والدماء تسيل من أطراف جسمه ووجهه ورأسه. قال لها إنه أصيب بشظية أثناء ما كان يطعم طيوره وانه سيحاول أن يجد وسيلة للذهاب إلى إحدى المستشفيات، لأنه كان ينزف

بشدة. ثم رجاها أن تغلق باب الشقة وتحتفظ بالمفتاح لديها حتى يعود؛ ومضى يجرجر بقدميه والدماء تسيل منه. ولم تره منذ ذلك الحين.

كان حديثها خليطاً من صراخ وهمسات، وقد بدا عليها الارتياب مما كانت تحكيه لنا.

وجف قلبي. كنت مرتاعة من أمور كهذه توقعتها. وجدت نفسي أهتف بها:

- هل عاد؟ ألم يعد؟

تراجعتْ بخوف إلى الوراء وهزت رأسها نفياً ثم تهاوت على كرسي وراءها. كان الروع يملكني وأنا مرتجفة الأوصال غير قادرة على الثبات. لم أعد أسمع حديثهما وانزويتُ بعيداً متظاهرة بالتفتيش في نواحي الشقة عن أشيائي. لن تسنح لي الفرصة إذن للحديث معه والاستماع إليه. هجست بأن مستوى الحياة الجميل ذاك، لا يمكنه أن يقاوم الزمن طويلاً. توقعت هذا من صميم قلبي. ولكنني ظننت، بغباء، أن ليس من العدل أن يختفي الإنسان الوحيد الذي شعرت أن باستطاعتي أن أجعله يفهمني ويفهم عاطفتي نحوه.

بكيته، خفية، عدة ليالٍ، وأنا منطوية على نفسي في الفراش، أرتعش مما كان يدور حولنا من انفجارات وإطلاق رصاص واستغاثات وصراخ. لا يمكن أن تسمى حياة، تلك المعايشة التي لا تحتوي إلا على الذكريات.

رفضتُ أن أرافقهم حين انصرفوا لفتح شقته. لم أرد، ربما، أن أودعه الوداع الأخير، وبقيت مصممة، بجنون، أن آمل بعودته. كنتُ، الآن، على يقين بأن الإحباط واليأس لن يفتحا مطلقاً أي باب، وبالأحرى باب السعادة.

دمشق تموز/ ٢٠٠٥

تحت شجرة وارفة الظلال
- أسطورة أردنية -

تحت الشجرة العالية التي تنتفش بالأوراق الخضراء الكثيفة خلال الربيع، كان لي مجلس تحت أغصانها طالت مدته. كنت أجلس يومياً على حافة السياج الواطئ، أتأمل بلا شيء. سألتني يوماً وهي في طريقها إلى مدرستها، متزينة متأنقة:

- أنتَ.. من أنت؟ أبن حارس العمارة؟

وجهت لي هذا السؤال لأني قمتُ محيياً إحتراماً لها:

- أنا؟ ربما.

- حسناً. قل لأبيك من فضلك ألا يهمل الحديقة الخلفية هكذا.

لم أكن ابن حارس العمارة، ولا كان حارس العمارة يعرفني. أنا إنسان متشرد، أعيش مع والدتي العجوز في غرفة صغيرة بسطح تلك العمارة. كانت تنظف بعض الأدوار أحياناً، وكنت أستجيب لطلبات ساكني العمارة مرات عديدة في اليوم، فأحصل على قروش قليلة تقيم أودنا.

كنت أجلس دوماً هناك، ولكن ازدهار الوريقات الخضراء في الربيع، كان يلفت أنظار المارين بقربي. لم أدرِ السبب في ذلك. كنت أراها تخرج

يومياً من شقتها في الدور الثالث حيث تعيش مع والدتها واخوتها. تسير بإتزان ودون التفات حتى تصل الشارع بجانب العمارة فتقف تنتظر الحافلة التي تقلها إلى المدرسة. عادة ما كنت أقف ساكناً أراقبها وراء أحد الأعمدة التي تقوم عليها العمارة؛ وغالباً، بل دائماً، ما كنتُ أراها لا تراني. حين سألتني من أنا، كانت تلك المرة الأولى التي تراني فيها.

كنتُ في السابعة عشرة من عمري، وحيد أمي، وأمي بدورها وحيدة في هذا العالم الصاخب. لم أجد جواباً شافياً أجيبها به. كانت متفتحة مثل الربيع، مبتسمة ومتألقة النظرات؛ وكنتُ، بإنجذابي إليها، أخجل من التطلع إليها مباشرة. مع ذلك، سألتني في اليوم الثاني عما إذا أخبرتُ الحارس عن الحديقة الخلفية، فلبثتُ ساكتاً فبدتْ عليها بعض الدهشة:

- ألست أبنه؟

- كلا.

- أه، المعذرة. ظننتك تعرفه. من أنت؟

- أنا ؟!

وحافظتُ على صمتي، فازدادتْ دهشتها. ماذا كان بإمكاني أن أقول لها ؟

مضتْ دون كلام آخر. لم يكن لدي ما أقوله لها، فهذه العواطف التي تجيش في قلبي وفي الوجود كله نحوها، لا يمكن التعبير عنها أولاً ولا يمكن لأحد، خاصة هي، أن يسمعها دون سخرية واستهجان.

كنت نصف متعلم، لم أكمل الصف الرابع حين انتقلت والدتي إلى

العاصمة عمان، واختفينا، أنا وهي، في ذلك السجن الصغير في سطح العمارة.

كان على أمثالي أن يختفوا من أمام البشر المتعلمين والموظفين في الدولة والذين يملكون كل شيء. كنتُ لا أملك غير قلب ضعيف وغير بعض الإيمان في النفس. وكنتُ أتذكر كل شيء، وأريد أن أنسى كل شيء. أريد أن أستذكر شكلها الجميل ومشيتها ورونق وجودها في ذلك الجو الربيعي المبهج؛ وكنتُ أريد أن أنسى أني.. أنا، ذلك المخلوق المرمي على الهامش الأخير من الورقة الأخيرة من كتاب الوجود. غير أن ما يحدث أحياناً، لا علاقة له بهذه الدنيا، كما كانت تقول والدتي "إنها إرادة الله فقط، أما تفسيرها فليس ذلك من شأنك".

كانت تقف ذلك الصباح الدافئ الرائق في مكانها المعتاد بالقرب من الشجرة الكثيفة الأوراق ذات الخضرة الزاهية؛ وكنتُ على الجدار الواطئ، جالساً بحرج، لا أريد أن أتطلع إليها ولا أستطيع إلا أن أتطلع إليها بشغف.

لم تأتِ الحافلة في موعدها، تأخرتْ دقائق عدة؛ فسبقها فيها ذلك الشخص بسيارته السوداء الطويلة. جاء من بعيد كالسهم المنفلت من قوسه ووقف كاشطاً أرض الشارع الترابية بعنف؛ ثم خرج من السيارة.. طويلاً غاضباً أنيقاً. كلمها:

- أنتِ لن تتزوجي أحداً غيري. لن تتزوجي غير إبن عمك.. أنا. هل فهمتِ؟

تراجعتْ إلى الوراء برعب. تبدل لون وجهها إلى صفرة الأموات ووضعتْ يديها على صدرها. ولا أدري بأية قوة سماوية تماسكت لتهتف في وجهه المدلهم:

- أبداً.. أبداً.

وكنتُ، مرتجف القلب والنفس والحشايا، قد هبطتُ من موقعي على السياج ووقفتُ على بعد مترين منهما، خائفاً وجلاً؛ منها ومنه ومن وجودي بينهما هكذا ومما يمكن أن يحدث. كانا قطبين متنافرين على وشك إلتحام ستنبثق منه لا شك شرارة نار تحرق الجميع.

صرخ بصوت مرتجف:

- ماذا؟

ورأيته يمد ذراعه نحو جهة من جانبه الأيسر. وبسبب أجهله، لعله يمّت بصلة لمولدي في الريف، أخافتني حركته تلك فاقتربتُ منهما.

كانت واقفة بثبات، تمسك بحقيبتها على صدرها، غير متراجعة ولا بادٍ عليها ذلك الفزع الذي تملكني. هتفتْ بصوت أعلى:

- أبداً. أقول لك أبداً.

كنتُ آنذاك بجانبها حين أخرج ذلك الطويل المتأنق خنجره من تحت سترته وغرزه بسرعه في كتفها اليسرى قريباً من النهد. كنتُ أخاف هذا الشيء. ذلك ما ظننته سيفعله. كانت دمائي الريفية قد هجست بما سيحصل لتلك الفتاة البريئة التي تملك قلبي ووجودي. لم أكن قصيراً ولا ضعيفاً؛ ولأن ما رأيته أثار، ليس غضبي فحسب، بل جنوني وجنون جنوني إن صح القول. هجمتُ عليه ولطمته لطمة واحدة في وجهه. بدتْ عليه الدهشة. كانت هي قد صرختْ صرخة ألم عالية لفتت إلينا الأنظار. استل خنجره من بين ضلوعها فظهر ملوثاً بالدماء، ووجّهه لي، في الصدر، طعنة غادرة. تلقفتها بيدي فاخترق الخنجر كفي، إلا أني استطعت، مع ذلك، أن أوجه إلى وجهه المتشنج لطمة قوية بذراعي الأخرى؛ تراجع إثرها متعثراً وسقط هو وسلاحه على الأرض.

كانت الفرصة قد سنحت للناس حينذاك للركض نحونا والإمساك به ومناداة الشرطة والإتصال بسيارة الإسعاف.

كانت هي على الأرض، مرمية بملابسها الأنيقة الجميلة المتربة، حين أقبلت الحافلة لأخذها إلى المدرسة. نزل السائق والتلاميذ والمعلمات واختلطوا بالناس حولها. كنتُ أداري ألمي الشديد وجراحي، على مبعدة من الجمع، حين أقبل عليَّ، بعد فترة، أحد الممرضين فأعانني على الصعود إلى سيارة الإسعاف.

تبعته طائعاً، محاولاً ألا يراني أحد.. خاصة هي؛ لكنها كانت مستلقية أمامي الآن في سيارة الإسعاف، تنظر إليَّ بعينيها الجميلتين تلك، المليئتين بالدموع نظرات شكر وحنان افتقدتهما دائماً في حياتي.

همست قائلة:

- أنقذتَ حياتي.

كنتُ خجلاً، أتحاشى على الدوام مواقف من هذا النوع. مدتْ ذراعها نحوي فاضطربت نفسي. لمستْ يدي برقة لا وصف لها وعادت تهمس:

- أنقذتَ حياتي.. هل تعلم؟ لماذا؟

لبثتُ صامتاً، لا أملك أي كلام. كنتُ أعتقد أن نظراتي إليها كانت كافية لاعطائها جواباً مقنعاً. لم تمتْ تلك المخلوقة الرائعة واستعادت صحتها بسرعة، ثم، قيل لي، إنها تزوجتْ ونعمتْ بحياة سعيدة طويلة.

أما أنا...

عمان - حزيران ٢٠٠٦

الحواريات

حديث الأشجار

١) الشيخ
٢) السيدة العجوز

(بداية الليل. حديقة واسعة الأرجاء، ذات أشجار كثيرة، سامقة، كثيفة الأغصان، تبدو، في إحاطتها بالمكان، كأنها عمالقة متراصون في وقفتهم. ريح خفيفة تلاعب الأشجار والأغصان، وتعطي انطباعاً بأن هنالك رقصة غامضة بطيئة الوقع بين النسمات والشجر. الجو، عموماً، محاط بالإبهام والظلام خفيف لا يمنع الرؤية. على طرف مسطبة متسعة وسط الركح، يجلس الشيخ من دون حراك. إنه ظل أسود، لا يظهر منه إلا الشعر الأبيض الناصع وحدود الكتفين وميلان الرأس قليلاً إلى اليسار. يمكن أن تسمع موسيقى خفيفة رقيقة طوال الحوار، لإعطاء جو من الأثيرية.

لحظات. لا حركة من الشيخ. تقبل السيدة العجوز من جهة اليمين، سائرة ببطء شديد كأنها لا تتقدم. إنها قصيرة، مليئة الجسم، ترتدي معطفاً مطرياً يزيد من ضخامتها. في أثناء سيرها الهادىء المتأني، تتوقف أحياناً وتستدير برأسها المغطى بقبعة، تتطلع إلى ما حولها وإلى

أعالي الأشجار بخاصة، ثم تتمتم بكلمات غير مفهومه! الشيخ يراقبها بسكون. تمر أمامه من دون أن تلاحظه، وتبتعد خطوات عنه ثم تتوقف. تلتفت إليه).

السيدة العجوز

سلاماً.

(الشيخ لا يجيب. فترة)

السيدة العجوز

تراك منشغلاً أنت الآخر بالحديث مع الأشجار يا سيدي؟

الشيخ (صوت أجش)

آسف يا سيدتي، فلست قادراً على التفاهم معها.

السيدة العجوز

آه! لا أرى في هذا مبرراً.

الشيخ

حقاً؟

السيدة العجوز

منذ سنوات، لم يكن عندي أي عائق في مخاطبة الأشجار.

الشيخ

أنت إذاً إنسانة متفوقة.

(تتقرب السيدة العجوز ببطء منه)

السيدة العجوز

جزيل شكري، لم يطرق سمعي مثل هذا الكلام اللطيف منذ زمن طويل. هل تسمح لي يا سيدي أن أسألك عما إذا حاولت حقاً الحديث مع الأشجار؟

الشيخ

كل الوقت. من دون جدوى.

السيدة العجوز

آه! حالي تختلف. لابد أن أكون إذاً إنسانة متفوقة كما تفضلت وقلت.

الشيخ

هذا أمر واضح. *(وإذ تبقى واقفة أمامه)*

لماذا لا تجلسين؟ دعيني أسمع منك. حدثيني عن حوارك هذا مع الأشجار.

السيدة العجوز

(تتحرك ببطء وتأخذ لها مكاناً على الطرف الآخر من المسطبة)

لم يكن حواراً بالمعنى المألوف. كلا، لم يكن حواراً. ليست هذه هي الكلمة. كان، بالأصح، حديث طرشان. أتفهم ما أقول؟

الشيخ

أبذل جهدي

السيدة العجوز

حسناً، حديث طرشان أو حوار بين طرش، الأمر عندي سيان، ولكن واقع الأمر كان هكذا. كنت أخرج في تلك الليالي التي مضت، أتمشى ساعات في الأرجاء المشجرة هذه. كل ليلة تقريباً، صيفاً وشتاء. أبقى أتجول حتى ساعة متأخرة من الليل.

الشيخ

ولكن...

السيدة العجوز

دع الأسئلة إلى وقت آخر يا سيدي. خلني أكمل لك حديث أمري مع الأشجار. حسناً أين كنت؟ نعم. نعم. ألبث أتمشى، وقد أجلس أرتاح أحياناً. ما يهم، إنني في زمن معين، لا أستطيع أن أقول متى يبدأ ومتى ينتهي، يبدو لي كأنني أسمع.. كلا... ليست هذه هي الكلمة الصحيحة. في الحقيقة، أنا لا أسمع، كما سمعتك وأنت تلفظ عبارتك اللطيفة عني قبل لحظات. كلا. إنه، بالأحرى، نوع من... كأنك تشرب الأصوات، تسمعها من الجهة الأخرى لأذنيك! تسمعها بجسمك. أيصح أن أقول هذا؟ لغوياً، لغوياً يا سيدي. ألا تعلم أن اللغة، هذه البلوى الكبرى، لا تسمح بكل شيء؟

الشيخ *(يضحك بهدوء)*

دعيها تسمح. لا ضرر. استمري، أرجوك.

السيدة العجوز

ما دمت تقول هذا إذن. بعد ذلك، فالأمر مع الأشجار... إنها أشياء عجيبة، هذه الأشجار يا سيدي. صدقني. هي لا تقول لي كلاماً واضحاً ولكنها... هي هكذا دائماً... تفهمني وتلعق جراحي وتواسيني على طريقتها، والليل من حولي والثلج أحياناً أو المطر، أستمع إليها بإشاراتها ومزيج موسيقاها الناطقة، ساعات وساعات، ثم أقول لنفسي بعدئذ... يا إلهي... كم أنا إنسانة محظوظة!

الشيخ

ما أجمل حديثك يا سيدتي.

السيدة العجوز

آه... أنت تعاود إثارة غروري يا سيدي، وأنا سعيدة بذلك. لا نسمع كلاماً رقيقاً على الدوام في هذا الدنيا. ولكن... هل تسمح لي أن أسألك سؤالاً شخصياً... أو بالأصح سؤالاً فضولياً؟

الشيخ

لم لا؟ تفضلي

السيدة العجوز

مادمت لا تفهم حديث الأشجار يا سيدي، وربما لا تستسيغه، فماذا جئت تفعل هنا، في هذه الساعة العسيرة من الليل، والطقس كما ترى لا يساعدنا، لا أنت ولا أنا، على التمتع بالنسائم أو برائحة الزهور؟

الشيخ

الطقس هذا مناسب لي، فأنا أتحفظ وأحتاط قدر المستطاع.

السيدة العجوز

نعم. صحيح كل هذا. من حقك ألا تجيب. هل أزعجك سؤالي؟

الشيخ

أبداً. لماذا؟

السيدة العجوز

لأنك لم تجبني عليه

الشيخ *(ضحكة قصيرة)*

المعذرة. لم أدر، في الحق، كيف أجيبك. أنا هنا أتأمل كما ترين، وأحاول أن أقضي الوقت بهدوء حتى تحل الساعة العاشرة، لكي أمضي بعد ذلك إلى بيتي.

السيدة العجوز

آه... لديك بيت... دافىء ومضيء؟

الشيخ *(يتأملها لحظة)*

أنا آسف يا سيدتي. هل ذكرتك بأشياء جميلة ماضية يصعب عليك الآن الحصول عليها ؟

(تمسح السيدة العجوز على وجهها وتعدل من شأن غطاء رأسها. تبقى هنيهات ساكنة من دون كلام)

يحزنني ذلك حقاً. نعم يا سيدتي. لديّ منزل، ذلك الذي ترينه هناك *(يشير إلى أحد الجهات)* وأنا أنتظر أن يمضي الوقت لكي أنصرف.

السيدة العجوز

كم هو سهل هذا الأمر! حبذا لك لو كنت قادراً على محادثة الأشجار، لكنت ترى كيف يمضي الوقت بسرعة.

الشيخ

هذا صحيح. وأنت يا سيدتي... هل يجوز لي أن أستوضح منك... كيف تشكلت حياتك هكذا، وأنت تقضين لياليك في حديث مع الأشجار؟

السيدة العجوز

هل تظن أن لي مفراً من ذلك؟ لقد بلغت السبعين من عمري قبل أيام، وأنا، كلما سرت، أحس كأن ساقي مكبلتان بسلاسل من حديد، ومع ذلك...

الشيخ

ألديك أحفاد مثلي، لا ينامون قبل الساعة العاشرة، في بيت ضيق، يجبرك ولدك فيه أن تنحشر مع صغاره وأن تنتظرهم ليناموا قبل أن تعود من الخارج؟

السيدة العجوز

هكذا! هكذا إذاً؟ كلا يا سيدي، لست في موقف مثل هذا، كلا، لست في موقف كهذا.

الشيخ

أتعنين أن باستطاعتك العودة متى شئت ذلك؟

السيدة العجوز

أنا؟ كلا يا سيدي. أنا... أنا غير مسموح لي بالعودة حين أشاء. يقتضي مني أحياناً، أن أمكث الليل كله في الخارج.

الشيخ

أليس لديك... أهل أو زوج أو أبناء؟ ألا ترين أنك لا تستطيعين الاستمرار على هذا المنوال طويلاً؟

السيدة العجوز

لم لا؟ ألست مثلي في الموقف نفسه؟

الشيخ

أرجو المعذرة. قلت لك أن بمقدري العودة بعد الساعة العاشرة. آنذاك، يسمح لي بالدخول إلى البيت وبتناول الطعام ثم الإخلاد إلى النوم. الشرط الوحيد المطلوب مني هو ألا أحدث ضوضاء قد توقظ الأطفال. هذا هو كل شيء.

السيدة العجوز

وهو، هل هو... اسمح لي... هل هو ولدك، ابنك الذي جئت به أنت إلى الحياة وشقيت في تربيته... هو الذي يعاملك بهذا الشكل؟ قل لي، من فضلك.

الشيخ

لا تنزعجي هكذا يا سيدتي. نعم، إنه هو، ولو لم يكن ابني لعاملني بطريقة أسوأ، من يدري.

السيدة العجوز

أنت تتكلم بهدوء غريب عن أمور محزنة جداً، وهذا يذكرني بحديث الأشجار. من أنت يا سيدي؟

الشيخ

بشر من بين هؤلاء البشر.

السيدة العجوز

هذا غير صحيح تماماً. أنت تملك شيئاً آخر.

الشيخ

محتمل، غير أنني أجهل هذا الشيء. قولي لي من أنت؟ من أين جئت؟

السيدة العجوز

أنا؟ أنا، في الواقع، لست إنسانة متفوقة كما تلطفت وقلت لي قبل دقائق، كما أنني غير محظوظة كما ادعيت أمامك. هنالك، يا سيدي المحترم، حادثة عظمى واحدة في حياتي، حادثة مفردة أحالت حياتي إلى صحراء. لقد مات حبيبي بين ذراعي. رأيته يلفظ أنفاسه

الأخيرة وأنا احتضنه. إنه زوجي، وكان كل ما أملك في الدنيا. هل فقدت شخصاً عزيزاً عليك يا سيدي؟

الشيخ

كلنا، بشكل أو بآخر، نفقد أشخاصاً أعزاء. لماذا تحطمت حياتك هكذا؟

السيدة العجوز

لا أدري، لا أستطيع أن أدري. لعلي أحببته أكثر مما يجب. هل تظن ذلك خطيئة مني يا سيدي؟

الشيخ

أي سؤال عجيب! وماذا جرى لك؟

السيدة العجوز

لا شيء مهماً منذ سنوات. جهدت لتربية بنتيّ حتى كبرتا، وها أنذا... ها أنذا أنهيت السبعين منذ أيام.

الشيخ

هل تسكنين قريباً من هنا؟ وهل أستطيع مساعدتك؟.

السيدة العجوز

لا أظن، لا أظن. ماذا تعمل يا سيدي؟ هل لا تزال تعمل وأنت في هذه السن؟

الشيخ

أنا، من قبل، كاتب يا سيدتي، حدث لي أن اشتهرت، فصار الناس، يهتمون بي ويسألون عن أخباري، وإلا...

السيدة العجوز

وإلا؟

الشيخ

وإلا لكان ولدي قد طردني من بيته أو لكان وضعني في دار للعجزة.

السيدة العجوز

يا إلهي!

الشيخ

لا تستنكري، فلا يجب أن نلومه. افهمي يا سيدتي أن حال العالم من حولنا قد تغيرت، وحاولي أن تجعلي من هذا الفهم طريقاً للعزاء.

السيدة العجوز

هذا ما تقوله لي الأشجار دائماً، بلغتها البكماء.

الشيخ

أنت، إذاً، سعيدة ومحظوظة.

السيدة العجوز

ليكن الله في عوني إن كنت هكذا.

الشيخ

(ينظر إلى ساعة يده) لا أرى الأرقام بسهولة. لعلها تقارب العاشرة. وأنت... متى ستعودين الليلة إلى بيتك؟

السيدة العجوز

آه! أنا! بيتي! أهو ضيق بيتك يا سيدي... أعني بيت ابنك؟ أما أنا فلا مجال لعودتي قبل ... *(تصمت)*

الشيخ

لا تتكلمي إذا كان ذلك يؤلمك.

السيدة العجوز

أنت إنسان طيب ومتفوق حقاً يا سيدي. أنا لا أعلم، في الحق، لِمَ أشعر أمامك بالخجل من أمور لا علاقة لك بها. نعم يا سيدي، إنها أطوار الحياة كما تقول، وأن نفهم هذه الأطوار يعني أن نعتبرها أسباباً للعزاء... عزاء أرواحنا. الأمر يا سيدي أن بنتيَّ تعملان لتدبير المعيشة. هذا شيء لا يمكن إنكاره، وأنا لا عودة لي قبل أن يغادر البيت آخر الزبائن. لا مكان لي هناك، فأنا، بمنظري هذا، أشوّه الموقف وأفسد الرغبات، لذلك، كما تعلم...

الشيخ

تخرجين وتأتين هنا لتتحدثي مع الأشجار؟

السيدة *(تقوم ببطء)*

نعم. هذا ما أعمله.. أتحدث مع الأشجار. وما العمل؟ هل لديك ما تقترحه؟

الشيخ

كلا. لماذا قمت؟

السيدة العجوز

لأن موعد عودتك إلى البيت قد حلّ يا سيدي المتألق. اسمح لي بكلمة أخيرة لا بد لي أن أقولها، لكي ارتاح. أنت يا سيدي لا تستحق أن تعامل هكذا، لا أدري لماذا. إنها طبيعة الأمور كما أظن. لا تستحق أن تعامل هكذا. أتركك بخير وليحفظك الله.

الشيخ *(ينهض وينحني)*

بالغ احترامي وشكري لك يا سيدتي. هل ستنصرفين الآن للقاء أصدقائك الأشجار؟

السيدة العجوز

(تبتعد ببطء وتفتح ذراعيها عالياً)

كما ترى.. كما ترى.

ستارة

الأشباح

١) هو
٢) *الرجل المربوط*

(غرفة يسودها ظلام غير كثيف، ترى من خلاله جدران عارية. نافذة صغيرة في الأعلى على اليمين، هي مصدر النور الشاحب الذي ينير المكان. يبدو، بغموض احد الأشخاص جالساً على الكرسي مركون في زاوية. لا حركة ولا صوت، سوى هدير ريح بعيد)

صوت الرجل *(خشن ، مرتجف):*

قلت لها...قلت لها عدة مرات، لا يمكنني العودة إلى تلك المدينة بغداد، إلى ذلك البلد الملعون.قلت لها وكررت القول ألف مرة. لا يمكنني... لا يمكنني لكنها لم تجد وصفا تصفني به إلا الجبن. الجبن والخوف والاختباء والتراجع وحتى خيانة الحقوق. وبماذا يمكن أن أجيبها وقد أكملت الثالثة والسبعين؟ تقول ماذا تبقى لك كي تخشاه؟ وهي لا تعلم بأن الساعات الأخيرة تصير أثمن مع اقتراب النهاية. أثمن وأثمن، حتى الدقائق، وربما الثواني.

هكذا هي حياة الإنسان؛ هكذا وليس غير. وكم قلت لها ذلك

ولكنها لا تفهم؛ بل هي تريد ألا تفهم؛ فنحن نفهم دائما ما نجده ملائماً لنا؛ وهكذا تحصل الكوارث.

(صوت الباب يفتح على اليسار ثم يضاء المكان بضوء ضعيف يميل إلى الاحمرار. الغرفة ترابية الأرضية و جدرانها العارية حديثة البناء.

يدخل (هو) ويغلق الباب خلفه بشدة. إنه رجل متين الجسد؛ يرتدي ثياباً خشنة ورخيصة؛ بملامح فظة غير متناسقة؛ في حوالي الخمسين من العمر.

في الزاوية؛ يبدو الرجل الجالس على الكرسي وقد شدّت ذراعاه وراءه وعصبت عيناه. إنه بملابس أنيقة يلوثها الطين والتراب في عدة مواضع. على الجهة الأخرى من الغرفة، يتكوم أثاث بعشوائية، تغطيه بشكل سيء قطعة قماش قذرة).

هو *(يسحب كرسياً من جهة الأثاث ويجلس عليه)*

الله يساعدك.

الرجل المربوط *(يرفع رأسه كما يفعل العميان)*

أهلاً وسهلاً.

هو

كيف حالك؟

الرجل المربوط

أشكرك أخي. لطف كبير منك أن تسألني.

هو

هذا واجبنا. نحن لا نقصد إيذاءك.

الرجل المربوط

أدري. اكرر شكري. قل لي فقط إذا سمحت، ما الأمر الآن؟ أنا في هذا الوضع الصعب منذ مدة طويلة لم أعد أستطيع تحديدها، ولا أحد يأتي ليوضح لي هل أنا مخطوف أم لا ، وإذا كنت مخطوفاً فلماذا لا تتبعون الأصول وتقدمون طلباتكم يا أخي؟ إذا سمحت لي أن أسألك بالطبع.

هو

يمكنك أن تسأل. طبعاً، ولِمَ لا؟

الرجل المربوط

الحمد الله. إذن، وضح لي يا أخي أرجوك.

هو

لا أستطيع ذلك في الوقت الحاضر. هنالك اتصالات بشأنك لم تكتمل بعد. عليك أن تصبر.

الرجل المربوط

أيعني هذا أنك لا تستطيع حتى أن تخبرني إن كنت مخطوفاً أم لا؟

هو

هذا صحيح. عليك أن تصبر قليلاً.

الرجل المربوط

نعم، أفهم ذلك، سوى أني قد جاوزت الثالثة و السبعين من عمري وأنا مريض وجسمي لا يحتمل مثل هذا الوضع الصعب، فهل بإمكاني أن أرجوكم حسم قضيتي بما يمكن من سرعة؟

هو

يمكنك ذلك.

الرجل المربوط

إذن، أرجوك.

هو

عليك أن تصبر. لماذا تستعجل هكذا؟ سنحل قضيتك في الوقت المناسب.

الرجل المربوط

ولكني، كما ترى، مريض..

هو *(يقاطعه)*

نعلم ذلك. ألم نجلب لك الأدوية التي اعتدت أن تتناولها؟ هل قصرنا في ذلك؟

الرجل المربوط

هذا صحيح. بارك الله فيكم.

(لحظات صمت)

تسمح لي أن أذهب إلى المرحاض وأن أبتلع حبة الضغط قبل أن يفوت الأوان؟ وإذا أمكن..أنا أخاطب لطفك وكرمك..هل يمكن أن تسعفني بقطعة خبز ألوكها قبل أخذ الدواء؟

هو *(يقوم ويتجه إلى الرجل المربوط)*

بدأت تصير مزعجاً.

(يحل وثاقه من الكرسي ويسحبه فيقوم هذا ويسير بخطوات متخبطة برفقة (هو) إلى ما خلف الأثاث المتكوم. هنيهات ويعود به إلى الكرسي بالطريقة نفسها. يجلسه بخشونة ويعاود ربطه).

إجلس في مكانك وحذار من التلاعب.

الرجل المربوط

شكراً أخي، شكراً. الحمد لله.

هو

أنا، عادةً، لا أتحدث مع أمثالك. أنا رجل واقعي أعرف عملي جيداً، ولكنك حالة خاصة ووضعك غريب بعض الشيء. نحن نعرفك من قبل وقد أخذنا نراقبك حالما دخلت الحدود. لم نتصورك بهذه الحماقة والغباء. ألا تدري بأنك لقطة سمينة جداً، ولا يمكن أن تمر من بيننا بسهولة؟ أنت سمكة كبيرة لا تستطيع أن تخترق شباكنا.

الرجل المربوط

نعم. أعرف بأنك على حق، غير إنني لم أكن الغبي الوحيد.

هو

هي مصالحك التي أوقعتك في هذا الفخ.

الرجل المربوط

هذا صحيح. نحن نتقدم. هل نستطيع أن نتفاهم؟

هو

لا أظن. توجد اختلاطات بشأن وضعك.

الرجل المربوط

أعوذ بالله، كيف هذا ؟

هو

لا أستطيع الإيضاح. هنالك أخوة يريدون شراءك.

الرجل المربوط

نعم؟! نعم؟!

هو

لا تستغرب هكذا. نحن في خضم سورة من الأعمال والتبادلات والشراء والبيع، وأنت لا تقدر على فهم ذلك.

الرجل المربوط

أأنتم رجال أعمال يا سيدي؟

هو

اسمع إذا شعرتُ أنا أو غيري، بأنك تسخر منا بكلامك هذا، فإنك، يا سيدي، تلعب بالنار.

الرجل المربوط

العفو. أرجو المعذرة. لا أحب أن ألعب بالنار.

هو

لا تتكلم هكذا إذن

الرجل المربوط

أنا كنت أتساءل فحسب، إذ أن مصيري مرتبط بكل ما تفضلت بالحديث عنه. إسمح لي أن أفهم.

هو

لا مجال لذلك. عليك أن تنتظر بعض الوقت. قلت لك إن هنالك من يريد أن يستحوذ عليك.

الرجل المربوط

يستحوذ عليّ؟ من هو؟ وماذا يريد مني؟

هو

لا نعلم ولكننا نستعلم ونبحث. قل لي، متى غادرت البلد؟

الرجل المربوط

كيف لي أن أتذكر! ربما بعد الحصار بسنة أو سنتين. ما دخل هذا في قضيتي؟

هو

نحن نستعلم، ألا تفهم؟ وأين كنت قبل أن تغادر؟

الرجل المربوط

لم أكن في أي مكان. كنت في بيتي مع عائلتي، وكنت اشتغل في السوق.

هو

عائلتك هذه، ممن تتكون؟

الرجل المربوط

يا سيدي ، ما هذه الأسئلة؟ عائلتي هي زوجتي وبنتاي.

هو

فقط؟ قل لي ولا تكذب

الرجل المربوط

ماذا أقول لك؟ ولِمَ تعتقد أني أكذب عليك؟

هو

قد تكون لك مصلحة في ذلك. ألا تتراكض على الدوام وراء مصلحتك الشخصية؟ ما الذي أوقعك في هذه المعضلة غيرها؟

(لحظات صمت)

الرجل المربوط

دبّر لي ، يحفظك الله، قطعة خبز آكلها قبل أن أبتلع حبة الضغط. لا يفيدكم أن أموت بين أيديكم.

هو

هذا صحيح. انتظرني لحظة

(يخرج من الغرفة غالقاً الباب خلفه بعنف)

الرجل المربوط *(يتكلم كمن يناجي الهواء وهو يهز رأسه)*.

كم قلت لها..كم قلت لها! لن تكون لي عودة إليكم إذا ما وطأت قدمي أرض بغداد المحترقة هذه. لعنة الله.. لعنة الله علينا جميعاً.

هو *(يعود حاملاً لفافة صغيرة وكأساً وقنينة ماء. يضع الكأس والقنينة على الأرض جوار الرجل المربوط، يحلّ وثاق إحدى ذراعيه ويناوله اللفافة)*

خذ، هذا طعام لك.

الرجل المربوط *(يتناول اللفافة)*

شكراً، سيدي. شكراً كثيراً ولله الحمد.

(يبدأ بقضم قطعة الخبز)

هو

هذا سندويج دجاج. نأكله هنا بكثرة. لم يكن باستطاعتنا ذلك من قبل، ولم نشبع قط ونحن صغار. بينما أنتم.. مللتم من أكل الدجاج يا أوغاد.

الرجل المربوط

من قال لك ذلك؟

هو

لا أحتاج لمن يقوله لي. أنا أقوله لك وعليك أن تصدقني. قل لي، هل جئت من أجل عمارتك تلك..تريد أن تبيعها؟ ألم يكفك ما لديك في الخارج؟ سال لعابك على ثمن هذه العمارة فوقعت في المصيدة. جننك، بالتأكيد، ارتفاع الأسعار في بغداد. انظر إلى النتيجة.

(يتمشى رواحاً ومجيئاً بينما الرجل المربوط يأكل خبزته بتأن شديد)

أعـود إلى أسئلتي.أكنتم عـائلة واحـدة في الدار؟ لا تكذب علي. أحذرك. من كان معكم في الدار غير عائلتك؟

الرجل المربوط *(يتوقف عن المضغ)*

أنت يا سيدي تربكني كثيراً. لا أدري عمن تسأل ولا عن أي شيء تستجوبني. أعطني طرف الخيط على الأقل.

هو

أنا مثلك، لا أعرف الشيء الكثير ولكن..ألا تتذكر، في مراهقتك وشبابك، عائلة أو بالأصح امرأة وولدها؛ يعيشان معكم ويخدمانكم ليل نهار؛ ولا أحد من أهل البيت يتجرأ على السؤال عن هويتهما؟

لماذا؟ لأن الوالد الثري المتسلط هو الذي وضعهما في هذا المكان؛ وهو الذي اختار أن يكونا معه؛ فلما فارق الحياة تسنى لك وقد ملكت السلطة في البيت؛ أن تطردهما و ترميهما إلى الشارع دون شفقه.

الرجل المربوط

يا سيدي كن منصفاً ودعني أنهي طعامي لكي ابتلع حبة "التينورمين" بعد ذلك. إن ضغط دمي بدأ يفعل مفعوله في رأسي.ناولني كأس الماء رضي الله عنك.

(يصب (هو) ماء من القنينة ويملأ الكأس ويناوله للرجل المربوط. يشرب الماء بعد أن يأخذ حبة الدواء من "هو")

الحمد لله.... الحمد لله. أنا ممتن لك يا أخي. بودي الآن أن أقول لك تعليقاً على كلامك بأن الله سبحانه وتعالى.. حتى الله لا يحاسب الإنسان على ما فعله غيره. لقد علمت بأن والدي؛ يرحمه الله قد

اشترى؛ في زمانه؛ تلك العبدة؛ العفو؛ تلك المرأة وتزوجها عرفياً وولد لها صبياً نشأ وكبر في بيتنا، في بيتي، وصار؛ كما يمكن أن تتخيل؛ خطراً على بنتيَّ المراهقتين. هل تفهمني؟

ماذا تريدني أن اعمل بهذه التركة اللعينة؟ سبحان الله..... سبحان الله.

هو

إسمع. أنا؛ في الحقيقة؛ غير مهتم بقصتك هذه ولا بغيرها. أنا رجل عملي وواقعي. كل ما في الأمر؛ إن استعلاماتي كما أخبرتك؛ كشفت لي هذه الأمور. أنا لا علاقة لي بالموضوع كله؛ ولكنك أنت الذي يتعلق الموضوع به.

الرجل المربوط

يا سيدي الكريم؛ دعنا نتفاهم كما قلت لك من البداية. أنا مثلك؛ رجل مستقيم؛ أتعامل باحترام مع الوقائع. دعنا نتفاهم.

هو

هذا الشيء حسن. لعلك تتفهم القضية إذن فيما لو شرحتها لك. أرجو ذلك على كل حال

(هنيهات صمت. "هو" يتمشى أثناء كلامه)

أنت مبدئياً رجل مخطوف. كنا نراقبك؛ كما قلت لك؛ حالما وصلت بغداد؛ وقام الشباب بعمل جيد فأعطوني كافة الأوليات الضرورية عنك فخططنا لخطفك ونجحنا. أنت لقطة غالية؛ كما تعلم؛ وثمنك في السوق هو مائتان وخمسون؛ وهو بالمقارنة....

الرجل المربوط *(مقاطعا)*

مائتان وخمسون...ماذا؟

هو *(باستغراب)*

مائتان وخمسون ألف دولار أمريكي؛ طبعاً. عن ماذا تسأل؟ هل لديك شك بنا؟

الرجل المربوط

كلا؛ والعياذ بالله. تقول.. مائتين وخمسين ألف دولار... أمريكي؟ **هو**

نعم، وأرجو ألا تتغابى. ليست هذه هي المشكلة. نحن على يقين بأن أهلك وأصدقاءك سيوفرون هذا المبلغ.المشكلة...

(يتوقف لحظة)

هل تعلم، أنتم الأثرياء تتمتعون بحياتكم جيداً وبشكل تحسدون عليه، ولكنكم، على الأغلب، تبذرون في هذه الحياة نطفةً من الشر تكبر وتتضخم وتتسع لتقضي عليكم آخر الأمر. أنت مثلاً، لماذا طردت ذلك الصبي وأمه من داركم، وخلقت لنفسك سبباً لدمارك؟

الرجل المربوط

ماذا تعني يا سيدي؟ ماذا تعني يا أخي؟ أنت تدفعني إلى الخبال بكلامك الغريب هذا. أنتم تريدون هذا المبلغ، حسناً اتصلوا بأقربائي لعلهم يعطونه لكم.

هو

هم يريدونك، يريدون الحصول عليك بكل ثمن.

الرجل المربوط

لماذا؟ لماذا؟

هو

لا ندري. إنهم زملاء عمل، ونحن نمنحهم الأولوية في الاستجابة للطلبات.

الرجل المربوط

من هم هؤلاء؟ قل لي من هم؟

هو

(يضحك) الآن، عرفت أنك مجنون بحق، يستولي عليك هذيان عجيب. يسأل من هم؟ هل تعلم، إنك لو نزلت لحظة هذه العصابة عن عينيك وعرفتني، لكان لذلك معنى واحد....الموت يا صديقي. يسأل من هم! نحن أشباح نعرف بعضنا بعضاً، ونحن لا نخون.إننا نمارس كل الأمور الخسيسة التي تعرفها ولكن بأمانة واستقامة.لسنا مثل أولئك السياسيين فوق الأرض، يرقصون تحت الشمس ويهزون أقفيتهم دون حياء، من أجل منصب أو راية مزيفة. نحن لسنا مثلهم.

الرجل المربوط

وأنا يا سيدي..ما هو مصيري؟ أتوسل إليك أن تخبرني.

هو

يحب أن أصارحك. لا أدري لماذا أقوم بهذا. نحن، أنت تعلم، أنا لستُ بفردي، نحن نساوم عليك. سعرك هو ذلك الذي قلته لك. وهو تحصيل حاصل. إنما... إنما هنالك بيننا من يعتقد بأن من الممكن أن نزيد قليلاً.

الرجل المربوط

تزايدون علي من؟ أنت قلت إن سعري هو هذا الذي ذكرته.

هو

أنت لا تفهم. الجماعة الأخرى، فيها شخص يريد أن يحصل عليك بكل ثمن. لقد أبدى استعداده حالاً لدفع المائتين والخمسين، فلما رأينا حماسه هذا، قررنا أن نزيد السعر إلى ثلاثمئة.

الرجل المربوط

وهذا الشخص، ماذا سيفعل بي إذا وقعتُ بيده، والعياذ بالله؟

هو *(لحظة صمت)*

لا أظنه يريد لك الخير. لست متأكداً، ولكني لا أحسب أنه من فعلة الخير هذه الأيام.

الرجل المربوط

هل تقصد أنه سيقتلني؟

هو

على الأغلب؛ ذلك أن سعرك هو مائتان وخمسون؛ فإذا دفع ثلاثمئة، وهو سيدفع، فلن يجد من يدفع له هذا المبلغ أو يزيد عليه بالأحرى.

الرجل المربوط

رحمة بي إذن يا سيدي. اتركوا الفرصة لأقربائي كي يدبروا المبلغ الذي تريدونه. دعوني اتصل بهم هاتفياً.

هو

لا تتحدث هكذا. لا نداءات هاتفية في هذه القضية الشائكة؛ وعليك أن تقدر موقفنا. ضع نفسك مكاننا. ثلاثمئة أكيدة.. في الجيب؛

مقابل ثلاثمئة قد تأتي وقد لا تأتي من أقربائك بالسرعة التي نريدها. ثم إن ذلك الشخص؛ إذ يصله خبر الثلاثمئة التي طلبناها منك؛ فقد يستفزه ذلك ويغضب ويزيد المبلغ نكاية بك؛ ونحن لا نرضى بهذا الموقف. نحن نعمل باستقامة؛ تذكر هذا.

الرجل المربوط

يالله! لم يخطر لي أن هذه القضية بهذه الدرجة من التعقيد والتشابك. يا لسوء حظي !

هو

ألم أقل لك؟

الرجل المربوط

أخيراً؛ ماذا قررت بشأني أيها الرجل الطيب؟

هو

أنا لست طيباً؟ أنا رجل شرير يمارس الشر بأمانة؛ وأنا؛ مثل بقية العراقيين الأسوياء هذه الأيام؛ أخدم مصلحتي، أبحث عنها لأنها الشيء الوحيد الذي تبقى لي.

الرجل المربوط

وإذن؛ ماذا قررتم؟

هو

أراك تتكلم بمسكنة وبلهجة؛ كما يقولون؛ درامية؛ في حين أن الأمر لا يقتضي كل ذلك. سنسلمك إليه. لقد دفع أكثر، وله الأولوية؛ فله الحق إذن في أن تكون له. قضية حسابية بسيطة؛ لا تأخذها كأنها حياة

أو موت. كن مثلنا أخدم نفسك واركض وراء مصلحتك. كلهم هنا؛ يفعلون هذا الشيء. لا تحزن أرجوك. كن مثلنا.

ستارة

عمان - كانون الثاني ٢٠٠٦

انتظرني عند شجرة الدردار

١) الشاب - في الثلاثين، بشكل ملفت للنظر. وسيم أنيق. يرتدى معطفاً أسود يصل إلى ما تحت الركبة.

٢) السيدة - تجاوزت الخمسين. ممتلئة الجسم ولاتزال تحتفظ بأثر جمال قديم. معتنية بملبسها.

(موقف حافلات يقع على مفترق طريقين أحدهما رئيسي والآخر فرعي. وراء الموقف سياج عال ترتفع خلفه أشجار وارفة خضراء يمكن تمييز نخلتين بينهما. الوقت ما بعد الظهر والشمس ساطعة.

كان الشاب جالساً عند رفع الستارة ثم قام بنفاد صبر وراح يتمشى رواحاً و مجيئاً وهو يتطلع إلى كافة الاتجاهات. لحظات ثم يعود للجلوس.

تقبل السيدة من الشارع الفرعي. تقف مترددة. تنظر إلى الرقم والاسم المدونين على قطعة خشبية معلقة على جانب من الموقف. تسير بخطى بطيئة مقتربة من الموقف)

السيدة

مساء الخير.

الشاب

يسعد مساك.

السيدة

أرجو المعذرة. لا أستطيع قراءة ما هو مكتوب على تلك القطعة الخشبية المعلقة هناك. أهذا هو الموقف..

الشاب *(يقاطعها)*

الموقف رقم "١٧"؛ موقف الطرق التي لا تلتقي.

السيدة

آه..... شكراً ما ألطفك !

(الشاب يكتفي بهزة من رأسه ثم يقوم ويقف متلفتاً من جهة لأخرى. السيدة تجلس على جانب المقعد و تراقب الشاب بصمت وهو في وقفته يتطلع إلى جهات الشارع)

السيدة

لماذا لا تنتظر بهدوء... بهدوء يا سيدي؟

الشاب *(يلتفت إليها . لحظة.)*

كيف يمكن ذلك؟

السيدة

بأن تفكر بأن الحافلة لن تتأخر.

الشاب

من قال إني أنتظر أية حافلة لعينة؟

السيدة

آه.. هذا صحيح. مع ذلك سيدي. لابد أن تأتي . امنحها بعض الوقت.

الشاب (*يستدير إليها؛ قلقاً*)

ماذا تقصدين؟

السيدة

ألست تنتظر أحداً... سيدة أو حافلة؟ دعها تأخذ وقتها إذن.

الشاب

(يبعد نظره عنها بعصبية مفاجئة)

كم من الوقت تحتاج لتأتى أخيراً؟

السيدة

هل يمكنني أن أسألك يا سيدي.. من أنت؟

(الشاب يرتد بحركة عنيفة ولا يجيب)

أرجو المعذرة؛ لدي شك بأني أعرفك. هلا تتفضل بفتح أزرار معطفك رجاء.

الشاب

ما هذا؟ بعض الاحترام؛ سيدتي. لسنا في وقت أو مكان ملائمين لمثل هذا المزاح. ما انحس هذا الوقت الذي لا يمر.

السيدة

لم أرد المزاح؛ أردتُ أن أشرح لك بعض الأمور؛ جئتُ لهذا الغرض.

الشاب

لكنني لا أعرفك يا سيدتي ولستُ في مزاج يسمح لي بالتعرف على أحد، كائناً ما كان.

السيدة

كما تشاء، كما تشاء.

(هنيهة سكون)

غير أنها ستأتي يا صديقي. إعلم أنها لن تتأخر هذه المرة.

الشاب *(يقف متجهاً إليها)*

نعم؟! أي هذر! لماذا تقحمين نفسك في هذا الموضوع؟ أنا لا أعرفك ولا أظنك تدعين معرفتي. لماذا تقحمين نفسك في موضوع شخصي جداً؟

السيدة

لأن..لأن الأمور انقلبت بنا يا سيدي.

الشاب

بأي شكل؟ بأي معنى.. إذا سمحت؟

السيدة

اعذرني. هذا هو الموضوع الذي رجوتك من أجله أن تفتح أزرار معطفك الثقيل هذا.

الشاب

أو ه يا ربي! مجانين في غير الوقت المناسب.

(يخطو بضع خطوات بعصبية، ثم يقف أمام السيدة. إنه منفعل)

أرجوكِ.. من أنت يا سيدتي؟ وما هذا الكلام منك؟ أأعرفك حقاً..كما يخيل إلي؟

السيدة

الآن؛ لا يمكنك أن تعرفني؛ ولكن تفضل بفتح أزرار معطفك لأريك ما أقصد.

الشاب

(يقف متردداً لحظات. ينظر إليها وإلى أزرار المعطف)

ما ضرّ لو..

(يفتح أزرار معطفه فيبدو في بدلة مخططة يعود طرازها إلى سنوات طويلة ماضية)

السيدة

أترى يا سيدي؟ ما كان أجمل هذه الملابس؛ وكنت سعيداً في علاقتك بها.. ألم تكن؟ كانت علاقة جدية كما اعتدنا أن نقول، وكنت تريد أن تعرض عليها الزواج وأن ترتبط بها إلى الأبد، حين توافيك بموعدكما هذا.. لكنها لم تأت!

الشاب

ماذا حدث لك يا سيدتي؟ ولم هذا النوع المؤسي من الكلام؟ لماذا تحكمين عليّ بمثل هذه القسوة وأنت لا تعلمين شيئاً؟

السيدة

بلى يا سيدي. أنا انسانة حزينة لأني أعلم كيف جرت الأمور ولماذا كسرت حياتك تلك الفتاة واختارت ألا توافيك في موعدك المصيري هذا.

الشاب *(بانفعال)*

أتعرفين يا سيدتي..أي نوع من أنواع المصائب أنت؟ أتقولين لي من أرسلك لي بحق السماء؟

السيدة

لست متأكدة تماماً، لعله الندم.

الشاب

الندم؟ الندم!! أي خبال هذا! وما علاقتي وعلاقة كل شيء في العالم بالندم.. بندمك؟!

السيدة

ألا تظن، وأنت في زمنك المقلوب هذا، بأن من الممكن أن تكون لي علاقة بتلك التي أخطأت في الاختيار، أخطأت منذ ثلاثين سنة؟

الشاب (*يضع يده حول حنكه محدقاً بشزر إلى السيدة*)

ماذا تقصدين؟ عمن تتحدثين؟

السيدة

عن شخص تعرفة.. عن شخص تنتظره. ألست في حالة انتظار.. انتظارها؟

الشاب (*يتماسك بصعوبة ثم يتقدم بهدوء منفعل ليجلس قرب السيدة مزرراً معطفه*)

أستميحك عذراً أيتها السيدة المحترمة، فأنت على وشك أن تخرجيني عن طوري. ببساطة، إذا سمحت، من أنت؟ هل لي بك معرفة سابقة؟

السيدة

أنا.. أنا لستُ تماماً.. تلك التي تنتظرها.. انتظرتها. لست هي بالتحديد. هناك فرق شاسع بيننا، هوة سحيقة من نوع ما.

الشاب

ماذا تعنين.. أرجوك؟ أجيبيني بوضوح، فأنا متوتر الأعصاب بعض الشيء.

السيدة

أرى ذلك يا صديقي؛ لكن شرح قضايا الدنيا والزمان حين تلتبس وتختل، يصبح أمراً مثيراً للبلبلة.

(الشاب يشير بذراعيه دلالة الحيرة، دون كلام)

حاول أن تفهمني، فأنا مثلك مرتبكة. لقد وددتُ أن أقول لك.. لا تحزن أكثر مما يجب يا سيدي. احزن بانتظام، بشكل محسوب، إذا كان لابد من الحزن. لا تدع الحياة تتحطم بين يديك. هي، تلك العزيزة، لن تأتي.. ثم ماذا ؟

الشاب *(ببعض الاضطراب)*

هذا.. هذا ما تقولينه أنت، ما يمكنك أن تقولينه. أما أنا فلي شأن آخر.

السيدة

أعرف ذلك، أعرفه جيداً؛ ولهذا.. ولهذا جئت إليك.

الشاب

جئت؟ إليّ؟

السيدة

المعذرة يا صديقي؛ فأنت ما تزال في حالة انتظار مضى عليها ثلاثون عاماً!

الشاب *(إشارة سخرية)*

أنا إذن متأخر كثيراً؟!

السيدة

كلا، بل متقدم جداً.

الشاب

ياللبلبلة! متقدم على أي شيء؟

السيدة

على لا شيء؛ فنحن لا نسير مع هذا الزمان، بل نحن نفنى فيه حسب.

الشاب *(بسخرية)*

نحن إذن، أنت وأنا، فانيان؟

السيدة

أنت فقط.

الشاب

عجباً! أنا فقط، ولماذا؟

السيدة

كم بودي ألا أشرح شيئاً؛ لا أعرف حقيقة ما آلت إليه الأمور ولا كيف. غير أنك كنت هكذا منذ ثلاثين سنة؛ كنت تنتظر.. كنت تنتظر مجيئها.. وهي لم تأت، وكل شيء قضى عليه الزمان.

الشاب

كلا. أبداً. لا يحق لك أن تتفوهي بمثل هذه الأقوال. أبداً. ما أدراك.. كيف تعرفين أنها.. أنها..

(يخفي وجهه بين راحتيه فجأة)

من أنتِ؟ من أنتِ؟

السيدة

ولكنك غريب الأطوار بعض الشيء يا سيدي.

الشاب *(يرفع رأسه. بسرعة)*

من أنت؟ أتوسل إليك. من أنت؟

السيدة

ولكني أخبرتك بإشارات كثيرة.. إني أنا هي، تلك اختارت غيرك، ولم تأت.

الشاب

اختارت؟! اختارت غيري؟

السيدة *(بتوجع شديد)*

إذا أمكنني القول. كان اختياراً من النوع القاتل.. القاتل السريع. وأنت إذ تختار في هذا العالم الهش، فإنك، على الأغلب، إنسان مقضي عليه؛ فلا عودة لك مطلقاً، لا وقتية ولا أبدية.

الشاب

اختارت إذن؟ أتستطيع ذلك؟

السيدة

خيّل إليها. خيّل إليها.

الشاب

ولم تأت؟ لن تأتي؟ هكذا.. لن تأتي وهي كل ما تبقى لي؟

السيدة

لا تبالغ ولا تخطىء في تقويم الأمور.

الشاب

أخطىء بأي شيء يا سيدتي؟ ألم أكن مخلصاً مطلقاً؟ ألم أتحمل منها ما يكفي من المراوغات والأعذار والاتهامات الفارغة؟ ثم يعجبها مزاجياً، أن تختار طريقاً أخر.. شخصاً أخر.

السيدة

كان اختيارها ذلك، وجها آخر للتعاسة.

الشاب *(يقف فجأة، متغير السحنة. بلهجة حادة)*

ولكنك مجنونة بالتأكيد، وأنت تهذين مثل كل المجانين، وأنا،

للأسف، لا أدري كيف ولماذا ضيعتُ وقتي استمع إلى هذيانك. من أنت؟ كيف يمكنك أن تتكلمي هكذا ؟

السيدة *(تقف بهدوء)*

أوه، يا ربي؛ كم أنا حزينة! كنتُ ظلاً كشيفاً خيم عليك لحظات يا سيدي هي من السحر والاختلال الزماني. لا تهتم بي. لقد جئتُ تحملني ظنون بأني قد أستطيع إنقاذ.. إنقاذ ما لا يمكن إنقاذه. وهكذا كان.

الشاب

انصرفي إذن وابعدي عن نظري كل هذا التجهم. بعدك، لابد من أن يشع كل شيء.

السيدة *(تتحرك منصرفة)*

كم أتمنى ذلك! ولكن..

(تقف مترددة)

اسمح لي أن أسألك سؤالاً أخيراً. لا تقاطعني رجاءً. أتراك نسيت يا سيدي ما قالته لك حين اتفقتما على هذا الموعد؟

الشاب

أتذكّر كل شيء. كل نظرة.. كل لمسة، وأنا سعيد رغم وجودك المظلم أمامي.

السيدة

شيء محزن حقاً. أنت لم تفهم منها إذن يا سيدي أنها لن تأتي إلى هذا الموعد؟

الشاب

كلا؛ لم يخطر.. ولن يخطر لي ذلك. إنها أكثر إخلاصاً مني.

السيدة

كانت مخلصة في الحقيقة، ولكنها لم تكن واثقة من نفسها. كانت مخلصة حين قالت لك... انتظرني عند شجرة الدردار. ألم تفهم؟

الشاب

كلا. هذا لغز جديد منك.

السيدة

مني؟! ولكن، ألم تقل لك شيئاً من هذا النوع؟

الشاب

ربما. لا أتذكر جيداً. لا أدري.

السيدة

آه. كانت تلك إشارة منها إلى الموعد الذي سيُخلف، وأنت لم تفهم؛ لعلك لم تكن تعلم بأن هنالك مثل هذا الاصطلاح في لغة أجنبية.

الشاب *(ببطء)*

هكذا يكون الإخلاص إذن؟!

(تبتعد السيدة بصمت وتنعطف سائرة على جهة من الطريق الفرعي)

الشاب *(متلفتاً حواليه)*

اللعنة. أين يمكنني أن أجد شجرة دردار في هذه النواحي الموحشة؟

ستارة

دمشق-كانون الثاني-٢٠٠٤

البحث عن المتعبين

الزمان *ضحى مشمس. الوقت الحاضر*

المكان *مائدة تحيطها بعض الكراسي، قريبة من الواجهة الزجاجية الأمامية لمقهى في مدينة كبيرة. زجاج مصقول ونظيف يفصل المقهى عن الشارع.*

(يجلس السيد العجوز إلى المائدة وحيداً ، يرشف بهدوء من فنجان قهوة أمامه. إنه في ملابس عتيقة جداً ومهلهلة إلى حد ما. دون رباط؛ ورقبته المتغضنة تظهر من خلال فتحة القميص. يبدو؛ في جلسته وانحناءة رأسه؛ مثيراً للشفقة).

السيدة *(تمر من أمام المقهى، إنها في الخمسين من العمر؛ متينة الجسد؛ نشيطه الحركة؛ ترتدي بدله زرقاء شبه عسكرية. خلال مرورها تلقى بنظرة على السيد العجوز ثم تتوقف وتعود لتدخل المقهى وتقترب من المائدة)*

صباح الخير.

العجوز *(يرفع نظره إليها ويجيب بصوت خافت)*

صباح الخير يا سيدتي.

السيدة

هل تسمح لي بالجلوس... دقائق فقط؟

(تسحب كرسياً قبل أن تسمع الجواب وتجلس)

العجوز *(مشيراً بذراعه)*

تفضلي.

السيدة

لن أكون متطفلة لمدة طويلة؛ سأقول لك مباشرة ما أوحت به سريرتي.

العجوز

نعم؟!

السيدة

سريرتي.. حدسي.

العجوز

ما هو هذا الشيء؟

السيدة

لن تفهمه حتى لو شرحته لك. قل لي.. هل دفعت ثمن فنجان قهوتك هذه؟

العجوز

كلا؛ لم أفعل.

السيدة

وأنت؛ كما أنا متأكدة؛ لا تملك هذا الثمن... أليس كذلك؟

العجوز

ليس بالضبط.

السيدة

لا تحدثني بكلام غير ذي حدود. أنت لا تملك ثمن قهوتك؛ وأنت تنتظر... تجلس هكذا منتظراً ساعات.. لعلّ صديقاً يأتي إلى نجدتك فيدفع عنك. لا تنكر ذلك أرجوك.

العجوز

إذا أردتِ.

السيدة

حسناً. لماذا نرتكب مثل هذه الحماقات ونحن في سن متقدم.. كم عمرك؟

العجوز

سأنهى السبعين من عمري... غدا.

السيدة

آه...شيء جميل. سبعين سنة؛ قلت؟

(يهز العجوز رأسه إيجاباً)

هل يمكنك أن تسمي هذا الأمر.. قناعة إنسانية؟ تورط نفسك في مقلب مضحك من أجل قدح سخيف من القهوة السوداء؟

العجوز

هذا صحيح. قدح قهوة سوداء.

السيدة

طبعاً. أعرف ذلك؛ وأعرف أنك ستبقى جالساً؛ تصلي في قرارة نفسك؛ من أجل قدوم صديق أو فاعل خير ينقذك من هذا الموقف المزعج.. أليس كذلك؟

العجوز

ليس بالضبط.

السيدة

كلا؛ إنه هكذا بالضبط؛ وأنت مثل الجميع؛ تريد أن تملك حريتك في عمل ما تشاء. تشرب القهوة في المقهى حين لا يكون ذلك ميسوراً لك؛ وتفكر؛ من يدري؛ بالذهاب إلى أغلى مطعم في المدينة لتناول غذاءك فيه؛ أو ربما..

(تتوقف لحظات. تنظر إلى الخارج)

ربما يستولى عليك جشع مفاجىء فتحب أن تمتلك تلك السيارة المارسيدس البيضاء المركونة هناك؛ مثلاً. أليس هذا جنوناً؟

العجوز *(يرفع كتفيه)*

ربما.

السيدة

ولكن يا سيدي؛ هل سألت نفسك عن أسباب شعورك بهذا الجشع الغريب؟ ألا ترى أن العالم ليس ملكاً لأحد؟ ألا ينبغي لنا أن نقنع بالحياة الحقيقية؟

العجوز

الحياة الحقيقية؟!

السيدة

نعم؛ نعم. أنت تتساءل كأنك مهتم بالأمر. حياة الإنسان / الإنسان. أكرر الإنسان / الإنسان. الحياة التي لا ترتبط بهذا الترف المزعج. حياة بسيطة تخلو من كل التطلعات؛ ولكنها حياة الراحة الطبيعية. ما بالك تتطلع إلى تلك السيارة اللعينة البيضاء؟

العجوز

بالصدفة.

السيدة

لا تفعل ذلك. لا تفعله أبداً.

(لحظات صمت)

العجوز *(بصوت خافت)*

هل تسمحين..

السيدة *(تقاطعه)*

أرجوك. لن أسمح بزيادة الثرثرة. أريد أن أقول لك أموراً مهمة.

العجوز

سؤال بسيط إذا سمحت.

السيدة *(متذمرة)*

تفضل إذن.

العجوز *(بصوت خافت و ببطء)*

أنتِ يا سيدتي تمنعيني عن حق الكلام؛ لأنك صممتِ مع نفسك أن تدفعي عني ثمن قهوتي هذه. أليس كذلك؟

السيدة *(بانزعاج)*

نعم !! نعم؟؟

العجوز *(نفس الصوت)*

أقول؛ أنتِ في سريرتك صممتِ أن تدفعي عني ثمن قدح القهوة؛ فشعرتِ بأن من حقك أن تعامليني كأني طفل صغير أهوج. ألا ترين ذلك؟

السيدة *(يزداد انزعاجها)*

ماذا تعني؟

العجوز

لا أعني غير ما قلته؛ وهو ليس بالأمر الجديد. إنها الحال التي تسود العالم في أيامنا هذه. تطلعي بنظرة خاطفة إلى ما تعمله الدول الكبرى بتلك الدول الصغيرة المسكينة. يقولون.. ادفع لهؤلاء التعساء ثم ابدأ بعمل ما تشاء بهم بعد ذلك. أنتِ؛ مع احترامي يا سيدتي؛ بدأتِ حتى قبل أن تدفعي.

السيدة *(ببعض الاضطراب)*

أنا...أنا لم أبدأ بشيء.

العجوز

بل بدأتِ فعلاً. اقتحمت عليَّ وحدتي الصباحية وجلستِ بلا استئذان ثم رحتِ تلقين علي محاضرتك عن البشر والحرمان دون سابق إنذار؟ ما معنى هذا منك يا سيدتى؟ إذا سمحتِ لي الآن أن أسألك؟

السيدة *(مصدومة و مذهولة)*

أنا.. في الواقع.. ظننتك.. ظننتك لم تدفع ثمن قهوتك.. أليس الأمر هكذا ؟

العجوز

بشكل من ألأشكال.

السيدة

آه.. أنا على حق إذن. قلت لك ذلك. أنت لا تملك ما تدفع به ثمن قهوتك. هذا هو كل شيء.

العجوز

وهل يسمح لك هذا الموقف أن تفعلي ما فعلتِ؟

السيدة

ما فعلت؟ كنت على حق؟

العجوز

كلا أنتِ مخطئة؛ فحتى لو دفعتِ ثمن قهوتي مقدماً لما أعطاك هذا العمل سبباً لاحتقاري ومعاملتي كمخلوق فاقد الأهلية.

السيدة

ولكني لم أحتقرك؛ لم أحتقرك أبداً.

العجوز

بلى. لقد تصرفتِ بما يدل على ذلك. لا تشتطي وتسيري على خطأ.

السيدة

لم يخطر لي قط أن احتقرك. أؤكد لك ذلك.

العجوز

أنت مثل تلك الدول الكبرى، تخطئ وتبقى مصرة على الخطأ. إنها تظن أن في التراجع عن الخطأ ضعفاً لا يليق بها.

السيدة

لقد فهمتني بشكل غير صحيح. أرجو المعذرة مع ذلك.

العجوز

لا بأس؛ لا تعتذري.

السيدة

هل شعرت بإساءة لأني كلمتك عن القناعة؟ لم أكن أقصد شيئاً.

العجوز

كانت كلماتك بلا معنى، إذا أردت رأيي يا سيدتي.

السيدة

إنها من أجل راحة البشر.

العجوز

من أجل تحذيرهم.. ربما؛ أما الراحة التامة فلا سبيل إليها. أنت نفسك تحبين لو ملكت تلك المارسيدس البيضاء المركونة هناك. أليس كذلك؟ لماذا تعظين الآخرين بعكس ذلك؟.

السيدة

قلت لك.. من أجل راحتهم.

العجوز

إبدأي بنفسك أولاً.

السيدة *(لحظة صمت)*

أية ورطة شائكة أدخلتُ نفسي فيها ؟

(تهم بالقيام)

العجوز

لا تذهبي، أرجوك؛ فأنا لا أعثر على فضولية لطيفة مثلك دائماً. اجلسي وسيسرني أن أقدم لك قدحاً من هذه القهوة السوداء على حسابي.

السيدة

ماذا ؟ قدح آخر غير مدفوع الثمن!

العجوز *(مبتسماً)*

لا تبالغي هكذا في الاهتمام بالمال.

السيدة *(تقف)*

كم أود ذلك. شكراً، مع ذلك. لدي أعمال كثيرة عليّ إنجازها. إني أتراكض ساعات النهار كلها وأسير أكثر من أربعين كيلومتراً يومياً، ولا أجد فرصة للراحة. وفي الواقع، لا أدري كيف أمكنني أن أضيّع هذا الوقت معك. لقد جذبني شيء عميق الغموض، أخبرني بأنك إنسان وحيد ولا تملك أن تدفع ثمن قهوتك.

العجوز

وبعد؟

السيدة

وأن عليّ أن أسرع لمساعدتك.

العجوز

كما فعلت؟

السيدة

نعم. كما فعلتُ بكل الغلاظة الممكنة. ولكن.. قل لي بصراحة.. أتتصنع هذا المظهر؟

العجوز *(كأنه لا يسمعها)*

أجلسي. لماذا لا تجلسين؟

(تعاود الجلوس)

اسمحي لي أن أقول لك بأنك إنسانة في غاية الطيبة، ولكنك للأسف رعناء بعض الشيء. الدول الكبرى، تتلافاها، مثلك تماماً؛ تتمنى أن تكون سمعتها جيدة وناصعة بالرغم من كونها رعناء في تعاملها مع الغير؛ والسمعة الجيدة والرعونة عنصران لا يجتمعان هذه

الأيام؛ لا يُسمح لهما أن يجتمعا. هل تفهمينني؟ أما القناعة فاتركيها على جهة، وامعني النظر في حق الإنسان بالحياة. لم يعد يملكون حقهم الطبيعي في حياة عادية دون جوع أو خوف. لو كنت ألقيت عليّ محاضرة في هذا الموضوع لسررتُ كثيراً بسماعها. مع ذلك، هوني عليك، فحين يمس البلاءُ دولاً كبرى بأكملها، ماذا يمكن للأفراد أن يعملوا؟

السيدة

لا تهون عليّ، أرجوك. دعني أعالج خجلي بنفسي.

العجوز

كما تشائين، ولكن لا تبالغي. هل يتعبك عملك كثيراً؟ وبالمناسبة، ماذا تعملين؟

السيدة

ما همك من ذلك.

العجوز

أرجوك.

السيدة

أعمل في منظمة إنسانية تدعى منظمة إراحة المتعبين.

العجوز

حقا؟! يا للتناقض! هذه المتاعب من أجل إراحة المتعبين؟

السيدة

نعم، كما ترى. الآن هل تسمح لي بالانصراف؟

العجوز

إذا أردت. هل تقصدين مكاناً بعيداً؟

السيدة

على الدوام؛ والمكان أحياناً يتباعد بشكل لا نهائي.

العجوز

أمر مؤسف. وأنت، مع منظمتك الإنسانية، لا تستطيعين حتى الشكوى من التعب.

السيدة

أبداً.

العجوز

ولكنك بهذا تزيدين من عدد المتعبين.

السيدة

يبدو ذلك. لكننا نعمل لأن هدف المنظمة أكبر وأجلّ من الاهتمام بالأفراد من الموظفين.

العجوز

أنتم ضحايا المنظمة إذن؟

السيدة

كلا. لا تقل هذا، أرجوك. إنهم يدفعون لنا.

العجوز

هكذا؟ وهل يقلل هذا من تعبك؟

السيدة

إنه يجعلني أعيش.

العجوز

كما تحبين؟

السيدة

ليس بالضرورة.

العجوز

(العجوز يرفع ذراعه مشيراً للنادل، فيقترب هذا من المائدة)

(إلى السيدة)

أيمكنني أن أصر، ولو متأخراً، على تقديم قدح من القهوة السوداء إليك؟

السيدة *(تقف)*

كلا وشكراً. لا أريد أن أتورط معك أكثر مما فعلت. شكراً جزيلاً.

العجوز *(مبتسماً)*

على حسابي، إذا سمحت.

السيدة

أوه..كلا، وخاصة على حسابك. أكرر شكري.

(إلى النادل)

هل دفع حسابه؟

النادل

عادةً، لا يدفع. إنه صاحب المقهى.

ستارة

دمشق- حزيران ٢٠٠٤

حديث عن النهايات

١) المتهمة
٢) المحامي
٣) شرطيان

الزمان: *الوقت الحاضر في العراق*

المنظر: *غرفة كبيرة ذات طابع خاص. جدران بنية اللون، قاتمة، ليس فيها سوى نافذة صغيرة في أعلى الجدار المقابل. على اليمين باب مغلق. على اليسار حائط من الأعمدة الحديدية، في وسطه باب صغير. هناك في الغرفة منضدة خشبية وكرسيان، كل كرسي على جانب. الغرفة مخصصة لإجراء المقابلات مع المتهمين بجرائم خطيرة، وهي ملحقة بالموقف حيث يُسجن المتهمون. تضاء أنوار ساطعة.*

يفتح شرطي باب الحديد على اليسار ويدخل وبرفقته مدني يحمل حقيبة سوداء. الشرطي مدجج بالسلاح. يشير إلى أحد الكراسي.

الشرطي

تفضل بالجلوس. سأتصل بهم لإرسال المتهمة.

المحامي

شكراً.

(يجلس على أحد الكرسيين، بينما يخرج الشرطي من باب الحديد. يُسمع وهو يتكلم في الهاتف)

الشرطي

ألو. سيدي لقد حضر المحامي، هل تأمر بإحضار المتهمة فريال عبد المجيد؟ نعم؟ نعم، في غرفة المقابلات ينتظر. تحت الحراسة طبعاً، سيدي.

(دقائق ويُفتح الباب على اليمين وتدخل المتهمة بصحبة شرطي آخر مدجج بالسلاح. إنها سيدة في أواخر الثلاثينات، ذات جمال ذابل، ترتدي فستاناً أسود طويلاً. تسير بهدوء حتى الكرسي المقابل للمحامي ثم تقف. يتراجع الشرطي الذي اصطحبها إلى الوراء ويبقى أمام الباب على اليمين. المحامي يقف).

المحامي

سيدة فريال؟

المتهمة *(تهز رأسها إيجاباً)*

المحامي

صباح الخير. أنا المحامي علوان حسن. جئتُ أقابلك بعد أن وكلني والدك.

(تلبث واقفة دون كلام، ناظرة إليه بلا مبالاة)

تفضلي بالجلوس. لدينا حديث طويل يجب أن نتبادله.

المتهمة *(تجلس)*

من قلت وكلك؟

المحامي *(يجلس هو أيضاً)*

والدك الأستاذ عبد المجيد.

المتهمة

لماذا تركني طوال هذا الشهر موقوفة؟

المحامي

عفواً سيدة فريال. أنت متهمة بجناية لا تسمح بإطلاق سراحك بكفالة؛ ولذلك لم يكن مهماً أن نتأخر بعض الوقت في مقابلتك. لقد وكلني مساء أول أمس فقط، ولكن الفرصة سنحت لي مع ذلك لقراءة الأوراق التحقيقية.

المتهمة

حسناً، ماذا جئت تريد مني؟

المحامي

لا شيء بالتحديد عدا أن تساعديني بشكل من الأشكال على تخفيف الحكم المتوقع صدوره عليك.

المتهمة

هل تظن أن بمقدوري ذلك؟

المحامي

نعم، كما قلت؛ بشكل من الأشكال.

المتهمة

ما هذا.. شكل من الأشكال؟

المحامي

في البداية، يجب أن نكون صفاً واحداً.. أنت وأنا؛ أن نبذل جهدنا لنكون هكذا. ومن أجل ذلك، عليّ أن ألم بحقيقة ما جرى.

المتهمة

وهل تريد أن تتعاون معي لكي تلمّ بما جرى؟

المحامي

نعم، إذا سمحت، ومن أجل مصلحتك.

المتهمة

فإذا لم تعد مصلحتي تهمني كثيراً؟

المحامي

سيدة فريال، أرجوك. لا تتكلمي هكذا.

(لحظات صمت)

يجب أن أشرح لك موقفك القانوني قبل كل شيء، أنا لستُ يائساً، ولكني قلق بعض الشيء.

(لحظات صمت أخرى)

أنت متهمة بجريمة قتل مقترنة بجريمة قتل، وهذه هي إحدى الجنايات الخطيرة التي يعاقب عليها قانون العقوبات بالعقوبة القصوى. أتفهمين ما أقصد بكلامي هذا؟

المتهمة

لقد درستُ القانون مثلك.

المحامي

أعلم. نعم، أعلم ذلك. يحب أن أصارحك سيدة فريال، بأني أشعر ببعض الحرج وأنا أحاورك؛ لأني أعرف رفعة ثقافتك وتعليمك وتربيتك؛ ولكني أجد نفسي مضطراً أن ابذل أقصى جهدي لأفهم.. أو بالأصح، لأطلع على حقيقة الأمور.. أليس كذلك؟

المتهمة

أية أمور؟

المحامي

الآن، أرجوك سيدة فريال، لا.. لا تدخليني وإياك في هذا المأزق.. في هذه المتاهة من لعبة الألفاظ؛ فأنا، لسوء الحظ، لا أتقنها وهي لن تفيد قضيتنا أبداً.

المتهمة

ألم تجد كل شيء في الأوراق التحقيقية؟

المحامي

كل شيء عدا الحقيقة النهائية.. الحقيقة الحقيقية. أنت لم تفيدي التحقيق إلا بكلمتين..نعم ولا، مما اضطر حاكم التحقيق إلى أن يخلطهما ويأخذ بنعم بدلاً من لا في الحالتين. لماذا فعلت ذلك بنفسك؟

المتهمة

اشمئزازاً.

المحامي

اشمئزازاً؟! ممن؟ مم؟

المتهمة

من كل شيء. بدءاً من الوضع النتن في هذه البلاد، مروراً بغياب القانون والبشر المحترمين ومنهم حاكم التحقيق وحضرتك. من كل شيء.. من كل شيء.

المحامي

أبسبب هذا قتلت ابنك الصغير وزوجك؟

المتهمة

(تلازم الصمت منكسة رأسها باستسلام نحو المائدة. تهز رأسها ببطء)

كلا، كلا.

المحامي

أهذه هي كلا نفسها التي كررتها أمام حاكم التحقيق؟ لن يفيدنا هذا في شيء، مع الأسف؛ وأرجو أن تعلمي مسبقاً بأني لا أملك دفاعاً عما نعيشه هذه الأيام في العراق. لذلك، من المستحسن أن توفري غضبك عليّ إلى وقت آخر.

المتهمة *(تتراجع في جلستها)*

أنت تفهم يا أستاذ ولا تفهم في الوقت نفسه.

المحامي

هذا صحيح، فذكائي وخبرتي محدودان. ماذا يمكنني أن أفعل؟

المتهمة

لا أريد أن أهينك. أنا لا أعرفك من قبل، ولا أدري لِمَ استمر في محادثتك.

(لحظات صمت)

لماذا لم يحضر والدي لرؤيتي؟

المحامي *(يفتح ذراعيه)*

لم أسأله ولم يكلمني عن السبب. هل تودين أن أطلب منه ذلك.

المتهمة

كلا. كلا.

المحامي

حسناً. الآن، يا سيدتي، هل آمل أن تشرحي لي..أو لنقل أن تكلميني وتوضحي لي موقفك...أو ما جرى لك ولهما يوم الحادث. أنا، بالضرورة، متطفلٌ ولكن بصورة قانونية كما ترين.

(تنظر إليه دون كلام)

لا تزيدي من حرجي، أرجوك. إذا أحببت أن أنصرف، فأنا لا أحب ذلك ولا أستطيعه بالأحرى. كوني إذن رفيقة متفهمة ودعينا نصل إلى..إلى نتيجة ما.

المتهمة

لا نتيجة هناك، كما تعلم جيداً.

المحامي

لا، بالتأكيد. هناك نوع من أنواع الحالات..المواقف. حالة من الحالات تشبه الخبال أحيانا، تجعل الإنسان يخاطر بضرب رأسه بالحائط، ليجد هل هو صلب حقيقةً أم لا.

المتهمة

لا أظنك تفعل ذلك.

المحامي

أنا أمامك، صدقيني، تتملكني حالة من هذه الحالات الجنونية. بودي حتى أن أخاطر بحياتي لأجل أن أعرف ما هذا الأمر الذي يلفك بغموض. من أنت ولماذا فعلت ما فعلت؟

المتهمة

أأثير الاهتمام إلى هذا الحد؟

المحامي

أي سؤال غريب! أي سؤال بالغ الغرابة!

(لحظة صمت)

قلت لك، لا تدعينا ندخل في متاهات نحن في غنى عنها..أنت

وأنا. ألا ترين أني مخلص وشبه بريء وأنا أحادثك؟ قدّري هذه الصفات على الأقل.

المتهمة

من أين تأتي بهذا العناد؟ أنا لا أستحق جهداً كهذا ولا اهتمام أبي قبل ذلك. لقد.. انكسرت حياتي وتهشمت..هذا هو كل شيء.

المحامي

إذن، اسمحي لي أن أعرف كيف حصل هذا، أرجوك.

المتهمة

ولكنك تعلم أي تهم خطيرة أنا متورطة بها.

المحامي

دعي ذلك جانباً. لنحاول أن نتجه نحو الحقيقة؛ الحقيقة الحقيقية إذا أمكن القول.

المتهمة

كم سيطول الحديث!

المحامي

ألا تجدين الوقت أرخص من التراب هنا؟

المتهمة

نعم، أجده. كما وجدت أشياء رخيصة أخرى هنا.. أرواح البشر وممتلكاتهم وحقوقهم.

المحامي

سنبدأ بفتح الأبواب إذن، مادمت ذكرت أرواح البشر.

المتهمة

أنت مملوك بفكرة مسبقة عني، وهذا أمر سيء.

المحامي

أبداً.. أبداً.

(لحظات صمت)

المتهمة

أنا امرأة عادية بسيطة وذات كرامة. أنا لا أدعي شيئاً سوى أني ملكت وعياً محدوداً بنفسي و بمسار حياتي؛ وأردت أن أنقذ مخلوقاً واحداً من هذا الدمار الذي يحيطنا هذه الأيام في العراق؛ مخلوق صغير وبريء؛ أنجبته صدفة وأحببته بشغف رغماً عني. كانت تلك فكرة معقولة ومقبولة في مظهرها؛ حمقاء وفارغة في مضمونها؛ إذ من يضمن لأحد أن يعيش دقيقة زائدة أخرى؟

المحامي

كان أسمه سرمد وعمره ستة أعوام حين..

المتهمة *(تمسك رأسها بيدها. لحظات)*

سرمد.. هو سرمدي أنا؟ أنا التي أنجبته؛ وكان هو مستقبلي. يا للأمهات المسكينات..كم يحلمن !

المحامي

ولكنك... اغفري لي... أنتِ التي..

(تقاطعه برفع يدها)

المتهمة

لا تزد. لا تكن غبياً مثل الجميع.

المحامي

عفوك. لا تظني بي سوءاً.

المتهمة

كلا. لا أملك أن أظن سوءاً بأحد. أنا أحدثك هكذا؛ لأنك تريد أن تضرب رأسك بالجدار لكي تعرف الحقيقة. هذا هو كل شيء.

المحامي

هذا صحيح.

المتهمة

ولذلك لا يجب أن تعجب إذا سمّاك البعض أحمق.

المحامي

لن يدهشني ذلك؛ فأنا؛ بالفعل؛ أحمق على طريقتي الخاصة.

المتهمة

هذا كلام جيد.

المحامي

هل أستطيع أن أشكرك؟

(تشير بيدها)

لقد حدثني والدك ببعض ما يجرى لك؛ أعنى الخطوط العامة لحياتك ودراستك .....

المتهمة *(مقاطعة:)*

أبي إنسان ضعيف؛ ولكنه كان قادراً؛ مع الأسف؛ على توجيه حياتي الوجهة التي يريدها. كان شغوفاً بالمال والثراء و كان يعتبر ذلك سره الخاص. لقد دفعني للزواج من ذلك الشخص.. ذلك المخلوق..

(تتوقف لحظات تحاول أن تتمالك نفسها)

كان يعتقد أنه سيضمن لي حياة سعيدة حسب مواصفاته؛ وكان في

السر؛ يخطط للاستحواذ على ثروة ذلك الزوج بشكل ما. يا للغباء !

وفي ورطتي اخترت؛ مضطرة؛ أن أعيش متعالية على حياتي اليومية تلك، حتى حدث.. يا ألهى ... كيف أمكن أن يحدث ذلك؟!

(تخفي وجهها بيدها)

كنت حذرة مع الحمل؛ تجنبته بكل الوسائل؛ آملة أن أستطيع يوماً الخلاص من ذلك المخلوق.

المحامي

أنجبت سرمد؟

(تهز رأسها بالإيجاب)

أكان ذلك قبل الحرب؟

المتهمة

نعم؛ في سنه ١٩٩٩؛ وكان هذا التاريخ موضع افتخار له. قال لي؛ ينبوع البراءة ذاك؛ قال لي في عيد ميلاده السادس إنه من مواليد القرن العشرين.

المحامي

كان عمره ستة أعوام حين.. حين حصلت الفاجعة؟

المتهمة

كنت مهووسه بذلك الطفل؛ وكنت أدرك أن حبي الجنوني له أمر غير صحيح؛ ولكني لم أستطع السيطرة على عواطفي. لقد غيّر نهج حياتي و تفكيري؛ وبسبب حالتي تلك؛ حدث كل شيء خارج حدود إرادتي.

المحامي

حسناً؛ حسناً. وضحي لي ذلك رجاء.

المتهمة

لا تكن سخيفاً. لا أريد أن أوضّح لك شيئاً. ابتعد عني.

(تتراجع في كرسيها بحركة عنيفة)

المحامي *(محاولاً الإمساك بيديها)*

آسف يا إلهي. أنا آسف جداً سيدتي. ضعي نفسك في مكاني. أنا أحاول أن أشيد دفاعاً عنك. آسف جداً.

المتهمة *(صارخةً)*

لا أريد ذلك. لا أريد دفاعاً عني. اتركني لمصيري. لست أفضل ممن ينحرون حولي في كل مكان.

المحامي

حسنا يا سيدتي. أغفري لي كلامي.

المتهمة

لم تعد لي رغبة في الكلام. كم أنا شقية يا ربي !

المحامي

على مهلك؛ أرجوكِ. خذي وقتك واستريحي قليلاً.

المتهمة

لا راحة لي منذ ذلك اليوم المشؤوم؛ لا راحة لي أبداً.

(فترة صمت. تبدو مترددة في القيام أو البقاء جالسة؛ ثم تلبث في مكانها)

ذلك المساء كان مبتهجاً؛ يستعد للدوام في المدرسة التي سجلته فيها. كان يومه الثاني وكانوا قد طلبوا منه بعض المواد المدرسية. وقف

باحترام جنب والده. كان هذا مشدود النظر بشكل جنوني إلى شاشة التلفاز؛ يصغي مفتوح الفم إلى أحد المعممين يهذي بكلام غير مترابط؛ فلم يسمعه. كنت أهم بأخذ طفلي لأنقذه بلا جدوى محادثة أبيه وهو في حالة لا يعي فيها ما حوله؛ حين رفع صوته قليلاً يطالب أباه بشراء كتب الصف الأول؛ استدار هذا إليه وبدا كمن يصحو من إغماء وعيناه تقدحان شرراً. وبسبب أنى لم أستطع سحب طفلي في الوقت المناسب؛ كما لم يكن بوسع الطفل أن يتراجع؛ فقد أصابته على موضع القلب؛ ضربة ذلك المخلوق المتوحش. كانت ضربة شديدة جداً من يد غليظة صلدة، رمته أرضاً في الحال وهو فاقد الحياة. ولم اصدق أن طفلي مات بضربة واحدة حتى أحسست بنبضه متوقفاً وأنا أحتضنه وأقبل الوجه البريء. ثم اختلطت عليّ الأمور. لا تظنني أدافع عن نفسي. أنا مشمئزة من الحياة أصلاً ومنكم وما تعملون؛ ولا أريد نجاةً أو هروباً. هذا هو مصيري وأنا أريده.

المحامي

مهلاً سيدتي. مهلاً.

المتهمة

لا أدري بأي شيء حطمت رأسه. لا أتذكر شيئاً سوى أنه بقي جالساً في مكانه دون اكتراث، يستمع إلى ذلك المعمم، فتناولت آلة حادة وهويت بها على رأسه فانفجر كالدملة. وهكذا، في لحظات، تختلط مصائر الأبرياء والمجرمين. يالهذا العالم من موضع دنس يملؤه الشر!

المحامي *(هاتفاً)*

أنت بريئة. أنت بريئة بحكم القانون. لقد دافعت عن نفسك.

المتهمة

لا تكن سخيفاً مرة أخرى. أنا لا أريد براءتك هذه. لا أريد هذه المنّة. كان قاتلاً فاقتصصت منه. اقتصوا مني إذن.

المحامي

هذا غير صحيح؛ غير صحيح مطلقاً. الحالة تختلف.

المتهمة

كان ذلك الطفل مستقبلي وبلسمي لتحمل أمراض الحياة من حولي. ماذا يجديني أن أحيا بعده؟ كيف يتسنى لي أن أنساه وكيف أجد هدفاً لعيشي؟ ألا ترى أن الإنسان بغير هدف، حيوان أبكم؟ فإذا تملكته وسيّرته أهداف واطئة سوداء، انقلب إلى متوحش مجنون؟ قل ذلك لأبي، قل له لعله يفهم.

(تقوم فجأة وتستدير لتنصرف)

المحامي *(واقفاً ببعض الهلع)*

رويدك سيدتي؛ إلى أين تذهبين؟ لم ننته بعد.

المتهمة *(تلفتت إليه وهي تسير ببطء نحو الباب الذي قدمت منه)*

أنت الذي لم ينته بعد، أما أنا فقد انتهيت منذ الأزل. ولي لك نصيحة.. لا تفتش عن النهايات، فإن ذلك سيبقيك شقياً.

(تشير إلى الشرطي فيفتح لها الباب تختفي وراءه دون أن تلتفت إلى الوراء)

المحامي

(يعاود الجلوس ويضع رأسه بين يديه)

(لحظات صمت)

ستارة

عمان- تشرين أول ٢٠٠٥

الهواتف الملونة

١) هو
٢) الخادم خيشان
٣) العراق في الوقت الحاضر

(غرفة واسعة ذات أثاث مبالغ في ألوانه المتنافرة. مائدة كبيرة فخمة في الوسط وأرائك وكراسٍ متعددة تزدحم بها الغرفة.

هنالك من التحفيات والتماثيل الرخيصة والأشياء الأخرى ما يملأ المكان ويكاد يخنق الساكن فيه.

ما يلفت النظر إلى المائدة الكبيرة، وجود ثلاثة هواتف ملونة موضوعة بشكل معين.. الأخضر والأصفر على الجهة البعيدة من الكرسي؛ أما الثالث الأحمر فهو أمام الكرسي مباشرة.

الوقت غير محدد بالضبط).

هو

(يتمشى أمام المائدة والقلق بادٍ عليه بوضوح. إنه قصير القامة، بارز البطن، عريض الكتفين، ذو شعر وشارب كثيفين، مصبوغين بلون أسود داكن السواد. ملابسه غالية الثمن، بغير أناقة ولا ذوق سليم.

يرن أحد الهواتف، فتظهر عليه، مع الرنين، إشارة ضوئية. إنه الهاتف الأخضر.)

الآن جاء وقتك يا ملعونة الأهل!

(يتجه نحو المائدة ببطء ويتناول سماعة الهاتف الأخضر)

نعم. أعرف. قلتُ لك ألف مرة لا تخابري في هذا الوقت ولا في أي وقت آخر. أنا غارق في الأشغال التي أنجزها بواسطة الهاتف، ليس لدي وقت لثرثرات النساء. فهمت؟ ماذا تريدين؟ ولِمَ تقولين لي هذا؟ أطلبي من السائق حمزة وهو يفعل كل شيء. تأخذين موافقتي؟! طز بموافقتي.

(يغلق الهاتف بشدة)

أعوذ بالله. لا عمل لها غير الطبخ والنفخ وتريد مني أن أشترك معها في ذلك.

(الهاتف الأصفر يرن ويعطي إشارة. يسرع قليلاً إليه ويرفع السماعة)

هالو.. حسن؟ لا تخابرني في هذا الوقت. قلتُ لكَ ذلك ألف مرة. ألا تعلم بأني أنتظر خبراً مهماً؟ ماذا؟ ماذا به؟ هذه أول مرة أسمع فيها شيئاً كهذا. مخطوف إبن كلب يريد أن يفحصه طبيب!؟ إبصق عليه يا أخي. قل له إن الرئيس يبصق عليك ولا يوافق. لعنة الله عليه. مخطوف مريض.. لماذا خطفتموه إذن؟ أنا أمرت؟ من هو؟ أه.. ذلك الحمار التاجر. إنه يتظاهر. قل له أسرع بدفع الدفاتر الخمسين وإلا فلا طبيب ولا بطيخ؛ وسنتركه يتفسخ. قل له إن الرئيس قال هكذا. مع السلامة.

(يعيد السماعة ببعض الشدة)

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. ما هذه الأعمال! هذه أعمال شاقة

وليست أعمال تليق بالبشر. تخطفهم وتطلب منهم الفدية حسب الأصول فيظنون أنفسهم في مستشفى! أعمال تحرق الأعصاب.

(يتمشى بعصبية. الهاتف الأحمر يرن ويعطي الإشارة. يركض إليه بسرعة ولهفة.)

نعم.. سيدي. نعم، هو أنا. خادمكم أنتظر الأوامر. نعم. وزارة البيئة؟ ماهي هذه الوزارة، سماحتكم؟ لم أسمع بها أبداً. أنتم تأمرون. أنا فضلتُ وزارة المالية. هناك يمكن أن نفيد، حسب اختصاصي كما تعلمون. هذه.. لم اسمع بها أيضاً. وزارة الثقافة؟ لم أسمع بوزارة للثقافة. لا والله. يبدو أنهم يريدون أن يلصقوا بنا ما تبقى عندهم. الفضلات، كما تعلمون. عيب، عيب عليهم وعلينا. أنا أنتظر منذ ثلاثة أسابيع، سماحتكم، دون فائدة. نعم؟ أي مخطوف منهم. هذا. نعم، موجود. لم يدفع بعد. أهله يسوفون. لم نطلب الكثير. خمسين دفتراً فقط. يستحق مائة. ماذا تأمرون؟ تنقيص المبلغ؟ أنت تأمر، سماحتكم. سأجعلها عشرين من أجل عيون سماحتكم. فقط، فكروا بالوزارة التي أستحقها. لا تظلموني سماحتكم، فأنا ابنكم البار. نعم. مع ألف سلامة.

(يغلق بلطف الهاتف الأحمر. يرفع بعصبية سماعة الهاتف الأصفر)

حسن.. قل لهذا الحمار التاجر أن عليه أن يدفع عشرين دفتراً بسرعة. خابروا من جهات عليا عنه. نقصتها من خمسين إلى عشرين. نعم؟ كلا، ليس المقاول، أترك ذلك الآن. دعه حتى يصير جيفة. أتكلم عن التاجر الذي يريد أن يفحصه طبيب. قل له إن الرئيس جعلها عشرين بدلاً من خمسين. لا يمكن أن أنقصها أكثر. قل له إذا لم يعجبه ذلك فهناك زوجته وإبنه.

(الهاتف الأحمر يرن ويعطي الإشارة. يسرع بغلق الهاتف الأصفر ويرفع سماعة الهاتف الأحمر)

نعم سيدي، الأخ الكبير. كلا. كلا وألف كلا. كلا والله. لم أشتم أحداً.. لا البيئة ولا الثقافة. أعوذ بالله. هل أنا مجنون؟ قلت إني لم أسمع بها، هذا هو كل شيء. هل توجد وزارة بيئة كي أكلف بها.. هذا بالضبط ما قلته. كذلك عن الثقافة. نعم.. أنا؟ طبعاً مثقف ونصف. ولكني.. اعذروني سيدي، لم أسمع هناك وزارة للثقافة. هذا هو كل ما في الأمر. العفو؟ نعم؟ حقوق الإنسان.. ماذا حدث لحقوق الإنسان هذه المرة؟ لها وزارة؟ عجايب! لم أسمع بها والله. أقرأ الجرائد بطبيعة الحال. كل الجرائد. ولكنهم سيدي، لا يتكلمون بصراحة. أقوالهم كلها مكتوبة بالألغاز. تحاليل وتعليقات وتصريحات فارغة وتحليل التصريحات وغير ذلك. أما الوزارات الدسمة، فلا أحد يذكرها أو يتحدث عنها.. ما هي الوزارات الدسمة حسب رأيي؟ لا أدري والله. سمعتُ بها فقط. ما هي؟ أين تقع؟ لا أعرف. نعم؟ مثلاً؟ مثلاً، ماذا؟ وزارة النفط؟ كل شيء إلا وزارة النفط. هذه لا تقع في اليد أبداً ياسيدي. إنها لذوي الحظ العظيم. ماذا تقول، سيدي؟ تسخر؟ الله يرضى عنك. ظننتك تطلب موافقتي عليها. إنشاء الله. سأفكر سيدي، سأفكر. إن الله مع الصابرين. في أمان الله، سيدي.

(يغلق الهاتف الأحمر بلطف)

أما فعلاً، شغلة غريبة جداً، السياسة في هذا البلد. يسألونك أسئلة كأنك عالم ذرة أو عالم فلك. ما هي وزارة البيئة؟ وزارة حقوق الإنسان؟ وزارة السياحة الداخلية؟ وزارة المهاجرين؟ لا أدري هل كان يستهزأ بي أم ماذا؟

(يغضب فجأة ويضرب المائدة بقبضة يده)

ويسألني معنى وزارة دسمة؟ ها.. ها.. ها. عجيبة والله، السياسة في هذا البلد. كأنه لا يعرف. كأنه!

(الهاتف الأصفر يرن مع الإشارة. يتناول السماعة بهدوء)

ها.. حسن؟ ماذا؟ من هو؟ ابن صاحب معمل؟ ماذا لديه؟ على وجه التقريب. هل تخرج منه خمسون؟ قل لي. نعم أم لا. لا أريد بين بين. نعم؟ حسناً، حضروا أنفسكم لعملية خطفه. سأتصل بالجماعة وسأطلب منهم أن يقوموا بالواجب. هم يتصلون بك يا حمار حين تتهيأ الأسباب. هم لا أنت.

(يغلق الخط بشدة. يرفع سماعة الهاتف الأحمر)

أبو الزوز.. هلو. كيف الحال؟ دبر لي أربعة رجال أشداء مع مقتضيات عملية خطف. ليست كبيرة جداً ولا صغيرة. حضر مكاناً جديداً. لدينا ازدحام بالمخطوفين. إتصل بحسن واشرح له الخطة. نفس نسبة الأرباح. لا تغيير. مع السلامة.

(يغلق الهاتف الأحمر. يرن الهاتف الأخضر ويعطي الإشارة. لا يرفع السماعة. يبتعد متمشياً والهاتف يرن.)

موتي غيظاً. لن أجيب.

(يتوقف رنين الأخضر. يرن الأصفر فيرفع السماعة)

ها.. حسن. ماذا؟ أجنبي؟ أي نوع أجنبي؟ قلت لي إنه ابن صاحب معمل يا حمار. والآن تدعي أنه أجنبي. حرت والله معك. هل يبدو عليه الثراء أو شيء من هذا القبيل؟ لا تعلم طبعاً. أتركني أفكر.

(يغلق الخط. يتمشى)

ماذا نعمل بخطف أجنبي؟ لا شيء عنده؟ ولكن، كيف يعلم هذا الغبي بأن الأجنبي لا شيء عنده؟ لعله جاسوس تقف وراءه عشرون سفارة. نعم. نعم.

(يتناول سماعة الخط الأصفر)

حسن يا حمار، اخطفه بسرعة. لا تتأخر. الجماعة معك؟ حسناً، لا تتأخر. ماذا؟ هم، ماذا؟ أربعة؟ أربعة أجانب في سيارة؟ لعنة الله عليك. لعلهم كلهم جواسيس، خذوهم كلهم. هل عرفت هوياتهم؟ أمريكي بينهم! الله أكبر. والآخرون؟ بريطاني واستراليان؟ جيد جداً. خذهم إلى بيت عطية. تعرف أين. بسرعة.

(يغلق الخط)

أربعة جواسيس دفعة واحدة! لقطة كبيرة هذه؛ أم لعلها ورطة كبيرة؟

(الهاتف الأخضر يرّن ويعطي الإشارة. يتردد ثم يرفع السماعة. ينصت لحظات)

هل أنتِ مجنونة؟ أين تعيشين؟ أنا أذبح وأقتل الناس يميناً وشمالاً دون تفريق بين طفل أو امرأة أو عجوز، ومناقشات الوزارة جارية على قدم وساق. واسمي يتقافز بين أسماء المرشحين. وأنتِ، أنتِ بكل الصفاقة الموجودة في العالم، تخابريني لتقولي لي إن البصل الذي اشتراه حمزة لا يساوي فلسين؟ أنتِ مجنونة بالتمام والكمال. إرميه في المزبلة ياغبية وخلصيني.

(الهاتف الأحمر يرن ويعطي الإشارة. يغلق سماعة الهاتف الأخضر بشدة)

نعم، سماحتكم. كلا. لا خبر جديداً من الأخ الكبير. الأخ الأكبر! آه، نعم، فهمت. ماذا يريد؟ نعم. أربعة أجانب بالخطأ. أمريكي وبريطاني واستراليان. نعم.

(ينصت لحظات ثم يصرخ)

أذبح الأمريكي!؟ والسبب؟ العفو، سماحتكم، خرجتُ عن طوري. هو فقط؟ هو الأول. حسناً، حسناً. الآن؟ بعد أسبوع. كما تأمر. ماذا تقولون، سماحتكم؟ علناً؟ ما معنى علناً في هذه الشؤون؟ آه.. نصور عملية الذبح بالفيديو ونرسل الشريط إلى محطة التلفزيون. هذا أمر جديد إذا سمحتم أن أقول؛ سأهتم بنفسي بتنفيذه. لا تقلق أبداً. والأخبار الأخرى، سماحتكم؟ الوزارات وغيرها؟ لا شيء. لكن الأيام تمضي بسرعة مع ذلك، سماحتكم، أليس كذلك؟ نعم؟ لم يصلكم المبلغ!؟ أهذا معقول؟ خمسون دفتراً بالتمام والكمال، لم تصل؟ أهذا معقول؟ اسمحوا لي لحظة.

(يضغط على زر على الطاولة. يُفتح الباب بعد هنيهة ويدخل رجل طويل جداً، بشع كأنه حيوان، يتكلم ببطء وبصعوبة.)

خيشان، ولك يا خيشان، الخمسون دفتراً لم تصل لسماحته حتى الآن، كيف هذا ولماذا؟

خيشان (بتردد)

في.. الطريق.. ازدحام. هناك.. هناك ازدحام.. في.. في الطريق.

هو

(يشير إلى خيشان بالخروج فيسرع هذا بالخروج. يتحدث في الهاتف)

سيدي: صادف ازدحام في الطريق وتأخر وصول الرسول حامل الرزمة. إنها ستصل خلال دقائق إنشاء الله. لا داعي للقلق. لا حق لك بالقلق، سماحتكم، إذا كان الأمر بين يديّ. نعم؟ الحمد لله وإنشاء الله نسمع منكم أخباراً طيبة. الأخ الكبير لم يتصل بي وأنا أنتظر على أحر من الجمر. نعم، نعم. مع ألف سلامة.

(يعيد السماعة برفق. يحادث نفسه)

كم ستكلفني هذه الوزارة الخرة؟ الملايين المسروقة يمكن أن نحسبها ونقيدها ونسترجعها أو لا نسترجعها. لا يهم. ولكن.. الخطف والتعذيب والقتل والذبح.. الذبح علناً، كل هذا كيف يمكن أن نعيده لحاله الأولى؟ أو بالأصح كيف نتحاسب عليه؟ لا يهم أيضاً!؟ وزارة حقوق الإنسان، يقول! وزارة البيئة، يقول! وزارة السياحة الداخلية، يقول! وزارة المهاجرين. يقول! وافقنا أخي. قل لي فقط كيف نسترجع هذه الملايين التي نصرفها؟ ممن نسترجعها؟ من حقوق الإنسان أم من البيئة؟ غريبة جداً، أحوال الناس هذه الأيام.

(الهاتف الأصفر يرّن ويعطي الإشارة. يرفع السماعة)

نعم، حسن. كلهم؟ في مكان أمين؟ كلا، لن نطلب فدية. سننتظر. هل أخذت جوازات سفرهم؟ كلهم أجانب كما قلت لي؟ حسناً، حسناً. ذلك التاجر.. هل دفع؟ والآخر؟ لم يدفعوا بعد؟ هل تعلم يا غبي إني دفعتُ خمسين دفتراً رشوة قبل قليل؟ لا شيء، إلا لكي يرضى عني أحد هولاء الوسطاء الفاسدين. من أين أسترجعها؟ الله كريم، تقول؟ لا تجعلني أضرط من الضحك. اسكت يا حمار. انتبه إلى الأجانب ولا تسيء معاملتهم. هل تسمعني جيداً؟ سأعطيك أوامري بعد حين. حافظ عليهم جيداً.

(يعيد السماعة. يرن الهاتف الأخضر. يبتعد عن المائدة كأنه لم يسمعه. يتمشى واضعاً يديه وراء ظهره. في هذه الأثناء يرن الهاتف الأحمر فيقفز ويغلق الهاتف الأخضر ثم يرفع سماعة الأحمر)

نعم. نعم. شكراً سماحتكم. قلت لكم إن الازدحام هو الذي أخّر وصول البضاعة. كما تقول. نعم. ماذا ؛ ماذا ؟ هل كلموا سماحتكم؟ الأخ الكبير بنفسه تكلم عني!؟ الحمد لله. نعم. أنا أنصت. نعم. ماذا ؟ وزير بلا وزارة؟ ما معنى ذلك؟ وزير بالاسم فقط؟ وعليٌّ والحالة هذه أن أجلس في البيت مع امرأتي في المطبخ ويكبر كرشي كما تعلمون. كيف يمكن هذا.. سماحتكم؟ كيف يمكن هذا ؟ وكيف نسترجع..

(يتوقف)

العفو، كيف نستطيع أن نخدم بلدنا وأنا وزير بلا وزارة؟ هذا معقول! وطاقاتي الاقتصادية الكبيرة التي تعرفها جيداً سماحتكم، أين أضعها إن لم أضعها في خدمة العراق؟ بلدنا، سماحتكم تعرفون، يمر بأزمة كبيرة. أزمة احتلال وأزمة جهل وفساد .كلكم تعرفون ذلك، وأنا خادمكم دائماً. نعم؟ التاجر؟ أخبرتهم عن تنزيل المبلغ إلى عشرين دفتراً. طبعاً. طبعاً. كما تشاء سماحتكم. ولكن.. إذا سمحتَ لي يا سيدي، أعني وزير بلا وزارة، هذا كمن يقول لك أمسك بقرصة الخبز وكل منها ما تشاء دون أن تقطعها! هل يجوز هذا ؟ هل يجوز؟ نعم. نعم! التلوي في السياسة؟ هذه أول مرة أسمع فيها هذا التعبير. كيف أتلوى في السياسة؟ طبعاً، سماحتكم، أنا أصبر على كل شيء. أتلوى.. لا أتلوى.. كما تشاؤون.ولكن.. بلا وزارة! هذه بلوى كبرى. العفو. صدعتكم. نعم. أفهم. مع ألف سلامة.

(يغلق الخط بعصبية. يقوم يتمشى ثم يضرب المائدة بقبضة يده. يتحدث مع نفسه)

وزير بلا وزارة! غريب والله. ولكن.. لعل فيها بعض التقدير لشخصيتي مع ذلك. القضية العظمى هي كيف ندبر المصاريف. هناك بقية ثمن العمارة في عمان والشقة في بيروت والأسهم ومشروع تأسيس المصرف وغير ذلك وغير ذلك. لا يمكن أن أسكت على كل هذا. هذا ظلم فادح. ظلم حقيقي. ثم.. لماذا أسكت؟

(الهاتف الأخضر يرّن ويعطي الإشارة. يرفع السماعة بتردد.)

أنت أيضاً؟ ماذا تريدين؟ نعم؟ أية أخبار؟ عرضوا عليَّ أن أكون وزيراً بلا وزارة.

(ينصت لحظات)

أنت فعلاً مجنونة. تهلهلين هكذا كأن اليوم يوم عرسك يا مخبولة. ماذا أعمل بهذه الوزارة؟ أعرف يا غبية، أعرف أني سأصير وزيراً وصاحب معالي، ولكن.. ما القبض من ذلك؟ ما الفائدة من وزير بلا وزارة؟ ألا تفهمين؟ من أين أجيء بالمصرف؟ من يعطيني كي أشتري لك هذه المخشلات التي تغرقين فيها. قولي؟ من الوزير بلا وزارة؟ اذهبي واتركيني.

(يغلق الخط ثم يبدأ كالعادة بالسير في نواحي الغرفة وهو يتحدث مع نفسه)

يمكن أن أقلب الطاولة على رؤوسهم.. هل أقدر؟

(الهاتف الأصفر يرن. يرفع السماعة)

ها، حسن؟ دفع العشرين؟ أطلقوه. والمقاول؟ دفع أيضاً. أطلقوه أيضا. والأجانب؟ أهم في مكان أمين؟ سأعطيك الأوامر بعد وقت قصير. ضع الدفاتر في محلها الذي تعرفه، وسأخبرك أنا.

(يغلق الخط. يتمشى)

والله، لو قلبت الطاولة عليهم فسوف أرتاح. يقول لي هذا الذي نحترمه.. السياسة التواءات. هذه أول مرة أسمع فيها بمثل هذه الخرافة. حقوق الإنسان. حقوق البيئة. سياحة المهاجرين. التواءات سياسية.. أين نعيش يا عالم؟ والطاولة، كيف أقلبها على رؤوسهم؟ أخشى أن أدفن أنا أيضاً تحتها، وتضيع عليَّ الملايين والعمارة والشقة والأسهم والوزارة. يجب أن ألعب بحذق إذن مع هؤلاء الأجلاف. أتلوى كالأفعى بحذر حسب قولهم. ولكن.. كيف؟

(الهاتف الأحمر يرن ويعطي الإشارة. يسرع إليه ويرفع السماعة.)

هالو؟ نعم سيادة الأخ الكبير، خادمكم المطيع. كلا، كلا وألف كلا. لم أتذمر ولم.. العفو.. سمعتم أقوالاً خاطئة سيادتكم. أنا متشرف بالكلام معكم فقط، فكيف إذا تفضلتم وطلبتم مني أن أخدمكم؟ الأجانب موجودون. نعم، تحت حراسة مشّددة ودون إساءة معاملة. نعم. فقط، سيدي الأخ الكبير، إذا سمحت لي، أعني وزير بلا وزارة، غير معقول بالنسبة لي. ألا ترون ذلك؟ نعم؟ نعم. أمر غريب جداً. لا توجد أية فكرة من هذا النوع فيما يخصني؟ ولكن سماحته قال لي إنكم عرضتم عليه أن يعرض عليَّ منصب وزير بلا وزارة؟ لا صحة لهذا الخبر أيضاً؟ فهمت. فهمت. سيادتكم أردتم الاطمئنان فقط على وجود الأجانب المخطوفين لدينا؟ نعم. أفهم. أشكر فضلكم. أشكركم. مع ألف سلامة.

(يعيد سماعة الهاتف الأحمر إلى مكانها. يتمشى)

هكذا إذن. لا. هذه المرة لن أتركها تمر بسلام. لا، لن أتركها. سلّمتُ

لهم لحد الآن ثلاثة ملايين ونصف مليون دولار أمريكي، وذبحتُ من أجلهم أبرياء وأبرياء نسيتُ عددهم؛ وهاهم تراهم يبخلون عليَّ حتى بوزارة دون وزير.. أعني وزير بلا وزارة. حسناً، هل أتلوّى سياسياً أم أهجم كالثور الهائج؟

(يضرب المائدة بقبضة يده)

لا أستطيع أن أتلوى. لم أجرب هذا من قبل. أنا إنسان مستقيم كالعصا. مجرم.. نعم، يمكن، إلا أني مجرم مستقيم لا يعرف أن يتلّوى. فليكن. لقد دفعتُ لكم.. إذن ادفعوا لي. دفعتُ ملايين الدولارات، إذن ادفعوا لي وزارة دسمة. هذا هو المنطق؛ وأنا أفهمه جيداً، أما إذا لم يفهموه فالثور.. سيهيج.

(يتناول سماعة الهاتف الأصفر)

حسن.. أنت يا حسن، أسمع مني جيداً. جاءت الأوامر الآن. تذهب ومعك مصور ممتهن وآلة تصوير "فيديو" فهمت؟ مصور وآلة تصوير "فيديو". تذهب أنت وهو إلى حيث يوجد الأجانب الأربعة، هل تفهم؟ هل فهمت؟ قل لي. حسناً. اسمع جيداً.. تذبحهم واحداً بعد الآخر أمام آلة التصوير. لا تصرخ بوجهي يا حمار. هذه هي الأوامر. جاءت من فوق. ستأخذ دفترين على تنفيذ هذه العملية. أنا سأعطيها لك بنفسي. كلمة شرف مني. تذبحهم وتصور العملية وترسل شريط "الفيديو" إلى المحطة التلفزيونية التي تعرفها. لا تصرخ، أقول لك. كل ما أقوله لك هو أوامر جاءت من أعلى. هل فهمت؟ قل لي هل فهمت؟ قل لي. دعني أسمع منك. جيد جداً. بعد إتمام كل شيء تأتي وتستلم دفترين مني شخصياً لا من أحد غيري. لا تتردد. نفذ وتعال بسرعة لتجد الدفاتر أمامك. هيا، اذهب بحفظ الله.

(يعيد السماع ثم يقوم ويرتمي على إحدى الأرائك. يمضي زمن غير قصير وغير معلوم وهو مضطجع على الأريكة.

يُفتح باب الغرفة بغاية الهدوء ويدخل الخادم خيشان. يقعد هو في مكانه ناظراً إلى الخادم)

خيشان؟ كيف تسمح لنفسك بالدخول دون استئذان؟ ماذا تريد؟ تكلم يا حمار.

(يخرج خيشان ببطء شديد مسدساً من جيبه ويبدأ بإطلاق الرصاص عليه مع هبوط الستارة.)

عمان - حزيران ٢٠٠٦

الفهرس

الأقاصيص	**5**
سر الطفل	7
الأغنية الأخرى	15
قضية خاصة	23
الاختيار	39
البجعة	47
تحت شجرة وارفة الظلال	69
الحواريات	**75**
حديث الأشجار	77
الأشباح	89
انتظرني عند شجرة الدردار	105
البحث عن المتعبين	113
حديث عن النهايات	129
الهواتف الملونة	145